الفاروسيان
جسر الساحل الشمالي

الفاروسيان
جسر الساحل الشمالي

للمؤلف
حسن أنور أمين

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر
إعداد/ الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

أمين، حسن أنور.
الفاروسيان جسر الساحل الشمالي، تأليف حسن أنور أمين
- القاهرة: مكتبة إيتراك، ٢٠١٥.
١٠٣ص؛ ٩,٥ × ١٦,٥ سم
تدمك:
١- إدارة.
أ- العنوان.

اسم الكتاب: رواية الفاروسيان جسر الساحل الشمالي.
اسم المؤلف: حسن أنور أمين
رقم الطبعة: الأولى.
السنة: ٢٠١٥.
رقم الإيداع:
الترقيم الدولي:
اسم الناشر: إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع.
العنوان: ١٢ش حسين كامل سليم - ألماظة - مصر الجديدة
المحافظة: القاهرة.
الهاتف: ٢٤١٧٢٧٤٩
اسم المطبعة: الدار الهندسية.
العنوان: زهراء المعادي - المنطقة الصناعية - قطعة رقم ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٦.

الفصل الأول: شخصية هامشية وما عداها بطولية

موقع السرد.. غرفة في أحد مستشفيات الإسكندرية، خاص بالناجين من الهجرة غير الشرعية، سواء من حيث علاجهم أم من حيث رعايتهم حتى تسليمهم للسلطات المختصة، تمهيدًا لمعاقبتهم بتهمة الخروج عبر منفذ غير قانوني للدولة. مشفى خاص جدًّا؛ لأنه يعامل نزلاءه تارة كمرضى، وتارة أخرى كمتهمين.

شخص ملقى على سرير، يحكي لممرض تصادَف وجوده أمامه دون ترتيب مُسبَق، ويذكر نفسه بما حدث؛ خوفًا من فقدان الذاكرة ونسيان أغرب أحداث حياته.

اسمي رائف، تخرجت في جامعة الإسكندرية، لم أجد فرصة العمل المناسبة، لكنني وجدت نفسي قد عُيِّنْت مشرفًا في إحدى دور رعاية المسنين، وظيفةٌ رفَضها شبابُ كثر؛ لأنها تكبح اندفاعًا ما بداخلهم.. وكانت حيلتي الدفاعية هي أنني قد عُيِّنْتُ مشرفًا من أول مرة، دون التدرج في سُلَّمٍ وظيفيٍّ واعتبرت هذا إنجازًا. إلا أن الحقيقة هي أن هذه الدار دارُ رعاية خاصة، بمقدور أصحابها جعْلي المدير أو الخفير إن أرادوا، وذلك إعمالًا لقاعدة لا يخالفها أحد، وهي: مَن حكَم في ماله فما ظلم.

ومتى ذكر لفظ مُشْرف اقتُرِنَ بحقِّ المراقبة والتدخل بداعٍ وبلا داعٍ، وكنت عاشقًا لتلك السلطة رغم كونها محدودة المكان، أراجع أوراق العمل والسجلات، وأجبر الأدنى مني وظيفيًّا على فعل المثل، آمُرُ، أتعمد الغياب حتى تتراكم المشكلات ثم أتدخل لحلها، أكثر من نمط

للمراهقة المتأخرة، لكنني شديد الود مع كبار السن من ساكني الدار، وهذا الود هو الذي أعطاني أعينًا أرى بها الغارق الطافي، الذي تحتاج أن تراه بعين البصر وعين قلبك تنظر بالتزامن، وإلا سوف تتلاشى الصورة ولن تراها جلية أبدًا، تخيل شيئًا، بالعقل ترسمه ويضفي قلبك عليه الحياة، و كأنك أعطيت الصورة الذهنية الحياة لثوانٍ لكي تشاهدها، و إذا تصورت الشيء، فالتصور مجرد رسمٍ لأبعاد جامدة، وهو الأنسب للجمادات إذًا.

****

مرت سنتان على عملي بالدار، ومع ذلك لم آلَفِ الوجوه، فالنزلاء في ازدياد، وقلة فقط ترحل، ومن صميم سلطتي اعتماد طلبات نقل الغرف والتبديل وضم النزلاء معًا، فثمَّ من لا تعجبه غرفته، وآخر يريدها على الحديقة، وآخر يريدها على البحر، وآخرون يطالبون بضم غرفهم ليكونوا دائمًا معًا، وكنت أتقاضى رشوةً مقابل الموافقة، وتسريع القيام بتلك الخدمات، لكنني لست موظفًا عامًّا، فلا أعلم وصفها في تلك الحالة، وإن خيرت بين لفظَيْ: إكرامية ورشوة، فسوف أختار الحل الثالث: بدل طبيعة عمل، لتسريعه.

جاء اليوم الذي ازدحمت فيه الدار بصورة جعلتني لا أخرج من مكتبي إلا مرة أو مرتين في اليوم، تاه ارتباط الأسماء بوجوه النزلاء لديّ، أصبحْت أكتفي برد السلام دون المصافحة بذكر الأسماء.

إلى أن تلقيت طلبًا كان الأغرب منذ تعييني، إذا ما قورن بطلبات عديدة محفوظة بأرشيف الدار، طلب ضمٍّ ثماني سيدات ورجُلَين

في جناح واحد! وهو طلب فيه ما يكفي للإجابة بالرفض، فكيف أقبل وجود رجال مع نساء في مبيت واحد، ثم إن هؤلاء لا يجتمعون بطلب ضمِّ غرف، هو الأقرب إلى المستحيل، أربعة مصريات،يونانيتين، قبرصيتين، مصري و إيطالي.

توفيرًا للجدل قررت حفظ الطلب دون البتّ فيه، فوجدته قد أُرْسِل مكررًا ومُحمَّلًا ببدل طبيعة العمل، فحفظته أيضًا، فوجدته وقد أرسل من جديد ومعه ضِعْفُ بدل طبيعة العمل، ومحذوفًا منه اسم الرجلين مع بقاء النساء، كأنما يفسحون لي المجال لتوهُّمِ مُبرِّرٍ مُجْدٍ للقبول، وعدم التركيز على فكرة مضاعفة المبلغ المرفق، وكأنها هي المعول عليها في القبول. كم هو جميل حفظُ ماء الوجه، وأنت تحدث نفسك وتقول: "آه، إذا كان كدا ماعلش!"، مدَّعيًا أنَّ السبب في القبول هو حذف الرجلين، وليس زيادة المبلغ.

دفعني الفضول إلى رؤية هؤلاء المختلفين وطنًا المتحدين إرادةً في التجمع، وما إن وصلت جناحهم حتى وجدت طاولة عليها مشروبات متنوعة، لم أعهد هذا الشكل الاحتفالي في الدار، وما إن تقدمت حتى صدتني سيدة لم أستطع معرفة جنسيتها، وردَّدَت بِضْعَ كلماتٍ تنتمي كل كلمة للغةٍ مختلفةٍ.

-لا، ماعلش، سوري، باردون، الجناح ده برايفت، خصوصي.

بالطبع كلمات لا تدل على شيءٍ في ذاتها، من سيدة لا تعرفني، لا أعلم.. لَمَ لم أستخدم سلطتي التي أحبها، وأخبرها أنني المشرف، وأريد الاطلاع على ما يجري، للوقوف على مدى توافقه مع سياسة

الدار! وكأن للدار سياسة! شيءٌ ما جعلني أتريث، شيءٌ لا اسم له!

لم أكن واضعًا أهميةً للتفاصيل بعد ذلك، قررت أن أتنصَّتُ عليهم، وهذا هو المبدأ العام، والدافع الفضول والتسالي، ولكن ثمةَ شعور آخر يلوح ويختفي، يصعد و أخفضه: الريبة.

بدأتُ أُعِدُّ مواضع التنصت، وكالعادة أستخدم مرادفات معينة تسكت الباعث الأخلاقي القائل بأن التنصُّت غير أخلاقي، ولكن هذه المرة لم تكن بدل طبيعة العمل، وإنما كانت: أنا المشرف ومن حقي أن أعرف. خلط شديد بين الحق والتعسف في استعماله.

كان موعد اجتماعهم قرابة الحادية عشرة صباحًا، وبدأت التنصت من اليوم الثاني، ولا أعلم على وجه اليقين ما كان في اليوم الأول، ربما كان تعارفًا، أو احتفالًا بِلَمِّ الشمل، وما إن اكتمل عدد الجمْع في شرفة الجناح المطل على البحر.. حتى بدأت أستمتع بالتنصت، ثم ما لبثت المتعة أن اختفت من غرابة الأقوال وغموض السرد. وذلك الجمع الذي تعمد أن يرتدي الزي الأبيض سواء كان قميصًا رجاليًّا أو فستانًا كاملًا، حتى قالت سيدة منهم بينما هم يجلسون: "كلنا أبيض زيُّهم أهوه"، وتبتسم بفرحة.

بدأت الحديث سيدة ثمانينية تدعى لويز، كانت ألفاظها تخرج في لهجة مصرية طبيعية بهدوء وسلاسة، كانت تلك السيدة تعيش في مصر في السبعينيات، ثم رحلت إلى أوربَّة، ثم عادت إلى مصر منذ سنوات قليلة بعدما توفي زوجها.

بعد حذف لحظات السكوت والتأمل والتدبر والتفكر والشرود

ولزمات الحديث للتأكد من حسن إصغاء المتلقي، مثل: تمام، مضبوط، وبعض الألفاظ الأجنبية وبعض الخصال التي تلازم كبار السن في حديثهم.. بقيت تلك الأسطر:

-أنا سعيدة ومبسوطة إننا هنا، رجعنا تاني واتجمَّعنا تاني مع بعض، زيّ ما وعدنا بعضنا زمان ووعدنا أهالينا، نتجمع ونحكي.. نحكي عن حاجة كانت زمان قوي موجودة في البحر دا.

ثم أشارت بالسبابة نحو البحر، واستدركت: صحيح هي دلوقت مش هناك، لكن احنا بنشوفها بقلبنا قبل عنينا.

ثم أخرجت منديلًا تمسح به عينيها، وكأنهما تدمعان، وسط تصفيق وسعادة من الباقين، وتعليقات مثل: الله عليكِ لويز.. برافو برافو برافو لويز، وتعليقات المصريين بتعبيراتهم: أيوه كدا طبعا بالظبط!

أعمل في هذه الدار منذ ما يقارب الثلاثة سنوات، وعندي خلفية معرفية جيدة عن حالات الخرف، ولكن هذه الأعراض لا تصيب مثل هذا الجمع وفي نفس الوقت، حسنا، هناك شيئا آخر ولكنه ليس خرف، لعدم إمكانية حدوثه !

ثم أكمَلَتْ حديثها،

-حنحكي عن حبيبين، ونقول كانوا مين وكانوا فين، وجم منين وراحوا فين، بنحكي حكايتهم وحكايتنا كلنا، عشان نعرف إننا بقلبنا بنشوف زي عنينا، أومال لو شوفنا بالاتنين حنشوف إيه بقي

أعقب هذه الكلمات تصفيق أشد من سابقه،

-أنا دلوقتي عندي تمانين سنة، ومشوفتهاش غير مرة واحدة بس وأنا صغيرة، أبويا وأمي وروهالي واحنا على المركب، عشت عمري اللي فات نفسي أشوفها ولو ثواني، أنا حاسه إني لو وقفت عليها دقيقة حرجع شابة بنت عشرين سنة تاني..اللي عرفته قبل ما اجي مصر إن السنة دي ممكن يحصل مد وجزر ونشوفها، إدعو يا جماعة نشوفها

رد الجمع وفي أقل من الثانية، يارب يا لويز يارب، إن شاء الله نشوفها..

طيب، حيث إننا المرة دي في مصر، خلوا حد من إخواتنا المصريين يحكيلنا، مين يحكي يا تري !

سحب رجل ملقب بالدكتور رامز ورقًا كثيرًا من جانب مقعده، وارتدي نظارته- بعد أن مسحها في قميصه الأبيض- بكل سعادة وسرور وكأنه على مشارف مهمة قومية.. وهي كذلك بالنسبة له فعلا - وبدأ في القول ولكنه قول مختلف، لأن السكون في انتظار حديثه كان ملحوظا.. كأنه سوف يلقي نصا مقدسا، حتى إنني خشيت صوت أنفاسي أن يكشف تنصتي عليهم. سرعان ما بدأ حديثه، يتحدث الفصحى المكتوبة في الأوراق، ولكنه بدأ حديثه ممازحا

الورق ده مفهوش كلام... دي شجرة العيلة

- صحيح، دي مذكرات راجل من الجيل التاني للغربة، الشتات،النجاة، زي ما تسموه، كتبها وجمع فيها شهادات المعاصرين له، يعني من الآخر احنا بنسمع صوت أهلنا من أول وجديد.

خرجت أصوات تنفس وتنهيد من قوتها يكاد المرء يجزم بـأن مـن أخرجوها تعلموا فعلها هكذا في مدرسة واحدة !

ثم بدأ رامز قوله... وليته ما بدأ..

إن كنت فرعونيا، أو إغريقيا أو رومانيا خالصا، فستخلد ذكراك مصر أو اليونان أو روما، وأما إن كنت هجينًا وموقعك وسـط هـؤلاء جميعا، فلن يتذكرك أحد، إلا هجين مثلك.

يكون اللاجئ والمسافر والمهاجر حاملي صفاتهم بتركهـم الـوطن، ولكن ماذا يمكن أن تكون صفة مـن يتركـه وطنـه ويختفـي ! هـل شـعر إنسان يوما أن محل ميلاده بات فارغا، وعليه أن ينسب نفسه إلي غـير مكان، يسارع إلى حضن آخر كي يرتمي، وكي ينتمي، هل واجبنا نحو الأوطان، ينتهي بانتهاء وجودها، أم يبقي فينا ما حيينـا، وإن كانـت نصرة الأوطان الأولي يكفيها القول، فهـا نحـن نقـول ونحكـي ونـروي، أيها الوطن، الغارق الطافي... من يُضْطَّهد أو يطرد أو ينفي من أوطانه له قضية، وأمـا قـصة شـعبنا وقـضيته مـع ذرات المـاء، ومـع الأمـواج العاتية، التي خانت عهدها ومنسوبها، فعلت ومن شدة علوهـا ابتلعـت ما لـيس لهـا، ورغـم الأمـواج التـي لم يكـن يقـوي عليهـا إلا صـخر جزيرتنا، إلا أن القمم العاليـة مـن الجزيـرة لا تـزال تطفـوا مـن حـين لآخر، وكأنما وطن الأجداد يطمئن علينـا وعلـى أحوالنـا في أوطاننـا الجديدة.

ثم يعاود أدراجه مرة أخرى.

كانت هناك شجرة الجزر المصرية الإغريقية تملأ البحر الواسع الفاصل بين الشمال والجنوب كقطبين، تلك النجمات المتناثرة المضيئة لظلمات ليل البحر، كان إذا سأل شخص مبحر آخر: إلى أين تبحر بقاربك هذا؟ يجيبه: إلى النجوم، إلى حيث الضوء يأتينا نحن سكان الشواطئ عليا وسفلى، متناثرة في ما بين عالمين، عالم في الشمال وآخر في الجنوب، يرتحل إليها المصريون والإغريق و الرومان وغيرهم، وبين تلك الجزر الكثيرة، الأشبه بأرخبيل كوني، كانت هناك جزيرة متوسطة المساحة تلتصق بساحلها أخرى أصغر منها حجما، لم تحسم هذه الأرض أمرها، مصرية أم أغريقية، أم أنها الاثنين معا، أم شيئا آخر.... شيئا مغاير... طفرة تختلف عن مكوناتها الأصلية... تقول الرواية بأن القارة العظيمة تلك هي بقاياها.. بقايا عظيمة لأثر أعظم !

علي هذه البقعة أتحدث اللغتين: المصرية والإغريقية، فطفرت لهجة وليدة ما لبثت أن تحولت إلى لغة مستقلة عن العنصرين المكونين لها، وتزاوج أهلها، فظهر الخمري ذو العيون الملونة، وظهر الشعر الكستنائي كحل وسط بين الشعر الأصفر الإغريقي والأسود المصري...

ولكن سُكْنى هذه الجزيرة ونصف، وبداية هذه الطفرة لم تأتي بالتدريج وإنما بواقعة محددة شكلت البداية، نحكيها كميثاق في وطن ما، ولكنها قصة لعاشقين.

كانت أيام كثر قد مرت على أوامر الإسكندر بدراسة ردم المساحة

الساحلية بين فاروس الجزيرة وراكوده المدينة، كان مشروع لا يزال في إطار الفكر التطبيقي ومحاولة التنفيذ، وبمعزل عن تلك الأوامر العليا، ما يدركه السادة يرد على انتقادات العامة، السادة يعلمون أن الجزيرة دائما بحاجة إلى شريط من اليابس يدعمها ويشد من أزرها، كالشريان يغذي القلب، وأهل الجزر التي وجدت منعزلة بالفطرة، يشعرون وكأنهم سوف ينامون في الأسواق ! تعبيرًا قديمًا للدلالة على الفوضى و قلة الهدوء؛ نتيجة لسهولة وصول الزائرين وأهل الترحال.

وفي خضم هذا كله يسير القارب المتواضع الحالم بأرض مصر، القارب التي ارتوت أخشابه من الرحلات حتى حولها الترحال إلى أسفنج مشبع بماء وعطر البحر، في رحلة وإن كانت للتجارة، إلا أن التجارة منها براء، لا لعيب فيها، وإنما لأن ليس بها بيعا أو شراء...

وتسأل الفتاة أبيها الشيخ الطاعن في السن والمتمرس في أمور البحر: هل اقتربنا يا أبي؟ فيجيبها: نعم، تلك اليابسة التي هناك هي من أرض المصريين. فترد قائلة: بل أقصد هل اقترب موعد العودة للديار؟

فيومئ الشيخ برأسه نعم، ثم يكمل حديثه مع مساعده، فقد اعتاد ألا يملك الكثير ليقوله...

رغم عشرتها للبحر إلا أنه لم يكن يطمئنها، تلك الفتاة المسماة ليوندا والمعروفة اختصارا بليو، فلا الترحال ولا الزواج من تاجر مثل أبيها أو اللعب مع من في مثل سنها يلهيها، هي شخصية غير قابلة للإلهاء، يشغل بالها أكثر من سؤال لمن جعلت له حياته البحر موطنا،

تتلخص في سؤال واحد، إلى أين يتجه شراعها في الحياة؟! إلى أين الواجهة والمرسي؟ هل إن تُركت رياح عاتية ما تحمل قارب حياتها إلى واجهة لا تعرفها.. أيكون هذا الرسوّ اللاحق هو نهاية المطاف؟

كانت ليوندا كالشمس تدور حول نفسها ولا تبالي كم جسما تجذب ليدور حولها، لم تفكر يوما أن تلك الجاذبية قد تجبر نجما ما على الاقتراب دون مفارقة، أو تجبر جسما على الوقوف في مواجهتها إذا ما حدث و تلاقت المدارات..

وفي هذه الأثناء رغب المساعد في التطوع للحديث والترفيه عن تلك الفتاة المتململة، تطوع في الغالب يقابل بالاستغناء مقدما عن خدمات مقدمة.

- المساعد: على هذا الطريق سار الكثيرين، زوارا وغازين، وفي كل رحلة انتصار، سواء كنا محاربين أو تجار.

- نظرت إليه ليوندا نظرة شفقة وأجابته:

- أوافقك الرأي، و أما انتصاري في هذه الرحلة هو أنني لن أركب البحر مجددا.

شعر المساعد بالإحراج، وترجل من حديثه المقتضب هذا عائدا لمقعده كما كان.

لم يجعلها الغضب تهتم حتى بمظهرها، اعتقدت بأن مظهرها في مكان لم تختاره، ورحلها لم تريدها لا يهم، وأما التبسم في وجه أهل البلاد ردا لكرم الضيافة فلن ينقصها هذا شيء.

****

مر الثلاثة.. الشيخ وليوندا والمساعد من الميناء... تاركين ورائهم القارب القديم بعمر رحلاتهم.. وكان الشيخ يحاول أن يجد من يرشده للعنوان... بينما كانت ليوندا تراقب ما يجري من حولها، ودون أن تستطيع أن تصدر سوى حكم واحد.. ألا وهو أن كل ما تراه عينيها مذهل، ولم تعهده من قبل.. أنها المرة الأولى التي حتى يصعب فيها تحديدا مذاق المكان.. مذاق خاص أم مذاق غريب.. ولكنه مذاق يدفعها إلى تناول المزيد.

أرض صحراوية بدلا من المراعي، ولكنها ليست بصحراء... منبسطة لا تلال فيها.. أبقار وجاموس ضخم بدلا من الخراف والمعاز الصغيرة ذات الفرو الأبيض... شمس تضيء النهار دون حرارة.. أناس يعملون ولكنهم لا يتصببون عرقا !

وأما الجديد حقا فكانت الفراشات الصغيرة... فأجنحتها بها عدة ألوان حتى باتت الأجنحة لا تكفي ولا تتسع لكل تلك الألوان.. كالرسام الذي لم تتسع اللوحة لفيض مشاعره.. لون أزهار المكان ولون البحر الأزرق... كل هذا في كائن واحد..فلم تعد تدري كيف تعطي تلك الأرض هذه الكائنات كل تلك الألوان..الفراشات مرآة، تعكس ما حولها، وإن كانت ليوندا أتت من مكان يشعر سكانه وجدانيا بأنه لم يخلق ما هو أجمل منه، إلا أن هذه المقولة باتت أقل استقرارا نتيجة ما تراه.

النسيم المتوسط ورائحته الجديدة نسيم يصارحها بأنه ليس من الشمال أو الجنوب، يخبرها بأنه الحل الوسط بين عالمين، بمقدور النسيم

تحريك خصلات شعرها.. ولكن بلا رجفة أو بروده.. كأنه صار فارسا يداعب خصلاتها بيده كما في أماني المراهقات.

وأخيرا وصل الشيخ وقد استدل على اتجاه الطريق الذي يسلكه ليصل للعنوان الذي يريده... فيناديهم الشيخ: هيا بنا.. فتحمل ليوندا والمساعد الأمتعة ويسيرون...

ليوندا: إلى أين نحن ذاهبون يا أبي؟

الشيخ: إلى صديق قديم.. عندما جعلت مني الأيام فقيرا جعلت منه كبير التجار الأجانب هنا.. آمل أن يساعدني في بيع ما أتينا به من بضائع.. اسمه إمبيرتو..... إنه ينتظرنا فقد أخبرته بمجيئنا عبر تاجر آخر أتى إلى هنا منذ أشهر...

ووصل الثلاثة إلى المنزل الذي يطل على الساحل... منزل إمبيرتو كبير التجار... ليجدوه في انتظارهم.

إمبيرتو: مرحبا بك يا صديقي ويا بطل الذكريات.... لم أرك منذ زمن بعيد.. وكل ما فعله الزمن هو أن جعل لحيتك أكثر بياضًا.. يقول إمبيرتو ممازحًا صديقه الشيخ..

الشيخ: ها قد رأيتني... فهل مظهري يجلب لك السرور؟

إمبيرتو: كلا.. لا يجلب السرور... لأن السرور لا يحتاج إلى مظهر كي يجلبه.. أنت السرور ذاته يا صديقي.

يبتسم الشيخ... ويدعوهم إمبيرتو للدخول.

وجاء الليل.. وجلس الجميع للعشاء.. الرَّحَّالة وكبير التجار وزوجته.. وبناته الثلاثة.. وفي هذه الأثناء كانت ليوندا تسبح في بحر من الأسئلة التي لا إجابة لها -كالعادة -..... هل بالغت في حجم غضبي على القارب؟..... ولما لا يبدوا على وجه هؤلاء الفتيات ملامح الضيق؟؟ ألا يملون حياة التجارة مع أبيهم؟ ولماذا تصر هذه الأم على أن تتعامل وكأنها ستظل في هذه المدينة للأبد؟ ولا يمر سوى بضع ساعات حتى يأتي أحد جيرانها من أهل المدينة طلبا للزيت أو قليلا من الخضروات.

الأم: ليوندا... شرود البال هذا يرهق صاحبه.

يضحك الجميع بما فيهم ليوندا وتمر الليلة.

بات الجميع نيام الآن... ولم يبق مستيقظا سوى ليوندا و الفتيات الثلاثة...في غرفتهم يتحدثون.

روما الاخت الكبري: اخبريني ليوندا.. هل أعجبتك المدينة؟ أتمنى أن تكون نالت إعجابك!!

ليوندا: هل أستطيع أن أحدثك بصراحة روما...

روما: بالطبع ليوندا.. أخبريني كل ما تريدين...

ليوندا: لم أر سوى البحر وهو أزرق اللون في كل مكان ذهبت إليه مع أبي.. والأرض والمساكن وأناس يتحدثون بلكنة غريبة لا أدركها حقًّا.... تماما كالمكان الذي جئت أنا منه..

روما: هل تمثل لك اللغة مشكلة ليوندا.. بإمكاني أن أعلمك اللكنات المستخدمة هنا.

ليوندا: لا روما.. أخبرتك توًّا بقولي تماما كالمكان الذي جئت أنا منه... فأنا لا أصغي عندما يتكلم أبي في السوق مع الناس، وفي أي مكان في العالم سوف أسمع لغة التجار، لغة لا أعرفها.

روما: أفهمك.. وكنت في مثل هذه المرحلة يوما ما.. كل ما أرجوه منك ألا تكرهي ما لا تحبين!!

وينام الجميع

في صبيحة اليوم التالي، يناقش التاجران أعمالهم.. وذهبت الفتيات الأربعة يتسكعن في المدينة... لدى ليوندا الآن ثلاثة صديقات خبيرات لإرشادها، ومظهر الفتيات يوحي بأن ليوندا لديها ثلاثة وصيفات يحيطون بها السير

إذ بشاب يصلح الشباك مع أبيه يلقي التحية

روما: كيف حالك

أنا بخير أونج: كيف حالك أنت؟

أونج: بخير... وترى من هذه..... الأميرة؟

ابتسمت روما وتسارعت خطوات المسير

سمعت ليوندا لفظ الأميرة فاستنتجت أنها الوحيدة التي قد جدت على هذا الجمع.. فنظرت للشاب الذي ألقي الوصف عليها.. كان متوسط الطول أسمرا.. ناعم الشعر، ملامحه لا تنتمي لمكان واحد... فنظر إليها وابتسم.. فابتسمت ليوندا لكن دون أن تتذكر ما

قالته لنفسها على متن القارب بأن لا ضرر من التبسم لوجه أهل البلاد... بل ابتسمت لأنها أرادت حقًّا أن تبتسم.

توقفت ليوندا قليلا ثم بادرت روما بسؤال خاطف: من هذا؟ وكيف تحدث لغتنا هكذا؟

روما: إنه أونج.. شاب مصري من أهل البلاد.. خلوق جدًّا ويعمل في مساعدة أبيه الصياد.

ليوندا: وهل اعتاد أن يحدثك بلغتنا هكذا؟ وإن كانت لكنته خاصة... غريبة أم خاصة لا أعرف !

روما: لا... نتحدث المصرية في الغالب... لعله أراد تحيتك من خلالنا ليوندا....

تبتسم ليوندا فرحة، وتبادر روما بسؤال آخر: روما.. أخبريني الصدق... هل بينكما شيئا؟؟

فضحكت روما ضحكة عالية... لا يا ليوندا.. أونج بمثابة أخ لي وكم أتمنى أن تطول ابتسامتك هذه حتى نعود للمنزل.

حاولت ليوندا التخفيف من ضحكتها وهي تنظر لروما.. فتعالت ضحكاتهما معا أكثر وأكثر

عادت الفتيات للدار.. وأثناء مرور ليوندا أمام غرفة أبيها استمعت لما دار بينه وبين كبير التجار.

إمبيرتو: لا أخفيك سرا يا صديقي ما جلبته معك من البضائع لا رواج له هنا، ولن يباع حتى بأبخس الأثمان.

فشعر الشيخ باليأس وبدأ يفكر في كيفية جمع ثمن رحلة العودة للديار.. حتى القارب الصغير القديم الذي أقلهم إلى مصر لا يصلح للعودة بهم مرة أخري.. وكأن القارب قرر أن تكون مصر هي آخر أسفاره مع هذا الشيخ.

فسارعت ليوندا بالدخول عليه بضحكة زائفة..لم تعتاد ليوندا الضحك كثيرا في حياتها.. لذلك يصعب على الشيخ أن يقدر إن كانت هذه الضحكات مصطنعة أم حقيقة... وأخذت تروي لأبيها الشيخ كم أن هذه المدينة جميلة... وأن الحياة فيها بها جمال لا يوصف ولا يقدر.. فردّ الشيخ بابتسامة..... فلعل كلمات ابنته هوّنت عليه قليلا مما لحق بتجارته... وأعطته مبررا كاذبا ليبقى مدة أطول في المدينة...

علمت ليوندا أن البقاء سيطول.. ولا مفر من أن تغوص أكثر فيما حولها، ولا مفر من أن تسأل نفسها.. ترى... أين أنا؟

جلست ليوندا على الصخرة قرب البحر الذي لا يختلف باختلاف المكان.. ولا يختلف كثيرا أيضا عن لون عينيها

ليوندا... أهذا هو اسمك؟ نظرت ليوندا لتجد الشاب الذي قابلته في السوق... فبادرها بسؤال.. هل تنتظرين أحدا؟-

ليوندا: لا إطلاقا... تفضل

ثم سرحت ليوندا على من يا ترى عبء بدء الحديث

أونج: أفهم ما يدور في بالك.. ولعل ضالتك هنا

ليوندا: عفوا ! ماذا تقصد

أونج.. لا يعجبك جدال التجار.. ولا تكفيك الجزر الصغيرة التي أتيت منها.. ومدينتنا هذه إليك رحلة.. وأنتي لا تنتمين إلى أي من هذا

ضحكت ليوندا... حسنا.. مثلما تعرف اسمي عرفت أنا أيضا اسمك.. أما فيما يخص خطابك هذا فإنه يحمل شيئا من الصحة....

ابتسم أونج قائلا: حسنا يبدو أن اسمي صار شهيرا في منزل كبير التجار.

.. اثينا مقر الأحداث والأخبار لك سفر.. وروما أيضا لك سفر.. ومدينتنا الجميلة هذه لك سفر.. وربما أرهقتك الأسفار.... فأنت لن تقبلي أن يشتريك تاجر من أصدقاء والدك، ولا ترضي بالبقاء عبء عليه، ولا مجال لك كي ترتاحي من كل هذا.

خشيت ليوندا أن تصبح عارية أكثر من هذا.. فتقدمت بسؤال غير جوهري، وإن قد يصير جوهريا في الحقب المتأخرة من الزمن...

أين تعلمت لكنتنا؟

أونج: أبي صياد في الأساس.. وكثيرا ما نقابل أهلك وبني وطنك في البحر..... ومع الأيام أتقنتها

ليوندا: هل تعلم أنني لم ألتق من أهل البلاد حتى الآن سوى بك.. لا أعلم هل بي خطب ما، أم ماذا؟!.. ولكنني اخترتك كي تكون مرشدي ولتخبرني أين أنا... قالت ليوندا مازحة...

أونج: أنتِ في الأرض الجديدة...

ليوندا: ماذا تقصد.. جديدة كيف؟

أونج: أنت على ارض جزيرة مصرية ترتبط ببابسة أخرى تختفي تحت الماء لتظهر مرة أخرى عند الأراضي الإغريقية.. أنت على أرض وإن كانت يابسة غير مترابطة إلا أنها أبت ألا تحسب على شمال أو جنوب، وظلت حاملة لواء الحياة الوسطي بين نقيضين، أنتِ في المكان الذي قدر له أن يقصر على الطيور رحلتها من الشمال للجنوب، و يجعل الشمس بشروقها وغروبها تتلمس أرضا لم تكن لتدركها من قبل، هي جديدة لأنها بتفردها تختلف عن أقرب اليابسات لها، وتتشابه مع بعضها رغم التباعد.. هل تدركين معني أن تكون روحك مقسمة لنصفين متباعدين، وبين نصفيها هناك أغيار؟!

لا يعنيني ما أخبرني به أجدادي بأن أرضنا تلك في شمال وجنوبا كانت قارة متصلة تضاهي باقي الأمم، فأنا أعشقها حتى وإن كانت جسرا معدودة درجاته

كانت الأرض حلما.. فبات الحلم وطنا.. وإذا دخلتي هذه الأرض اخلعي ثوب أحلامك خارجها.. وارتدي ثوبا منها به أحلاما جديدة.. كوني على هذه الأرض كما تريدين أنت.. وسمي نفسك اسما جديدا إن أردت

هذه الأرض جسرا.. ولا يضيع المرء أثناء عبوره جسرا.. ولا يكون غريبا إلا إذا عبر الجسر..

ليوندا: أتحب وطنك إلى هذا الحد؟

أونج: إن كان حبا.. فبمقدور كل محب لوطنه أن يقول ما قلته

أنا عن وطني.. ولكنك إن حاولت سحب وصفي هـذا علـى أي أرض أخري.. فلن تجدي تلك الأرض أبدًا..

ليوندا: ولكننا الآن قرب الساحل.. بما يسمي موقعنا هذا..؟

أونج: كانت ولا تزال فاروس.. وأنا وأنتي فاروسيان

أونج: الآن وجدتيه ليوندا؟؟

ليوندا: ما هو؟

أونج: الجسر الذي تخيلتيه مرارا؟

تضحك ليوندا وترد: أعتقد ذلك

والآن أخبريني يا فاتنة ما معني اسمك؟

إنني سميت به تيمنا باسم جدتي ليوندا:

لم أقصد سبب تسميتك به.. بل أقصد معناه

لا أعلم.. فلم أفكر في السؤال عنه يوما ما؟ حتى لا أظن أن أبي يعلمه.. فالتيمن بالأجداد أهم من المعاني فهم يصنعون معاني الأسماء وإن كان للاسم معني سلفا يتغير بحسب المتسمى به.

حسنا ... تبرير مقنع.. إنه جديد أكثر من كونه مقنعا إن أردت الحقيقة

وأنت هل تعلم معني اسمك؟

يجيب مبتسما: إنه اسم من قبل التاريخ ذاته.. إنه لملك مصري من أوائل الأُسَر التي حكمت بلادنا

أما معناه الحرفي فهو شامل لاسمين ووصفين آخرين ... هـذا مـا روي لي..

ولا تتباري معي في علم الأسماء يا فتاة.. حتى إنه بإمكـاني أن أخبرك باسم آخر للمكان الذي أتيت أنت منه، فهـل تـستطيعين أنـت فعل ذلك معي؟

أكثر من اسم؟ أعلم لها اسمًا واحدًا فقط.. فكيف تعلم أنت لها أكثر من اسم؟

..نعم، فهي تسمى كيفتو في لغتنا، وعذرا إن كنت لا أعلـم لهـا تيمنا.

ليوندا: إن اتبعنا نظريتـي في الاسـم وصـاحبه فـإنني أدرك معنـى اسمك أكثر منك.. من خلا لك أنت.

أونج: حسنا.. أخبريني يا معلمتي الإغريقية.

تضحك ليوندا قائلة: معناه الرجل الخلوق... هذا ما أعرفه حتـى الآن.

أونج: حسنا أتمني أن تتسع ذاكرتك لآلاف المعـاني التـي سـتثبت لك كل يوم.

ويضحك الاثنان !!

أونج: أتعلمين ما يعكر صفو أفكاري حقًّا يا ليوندا؟

ليوندا: لا أونج ! ومن أين لي أن أعلم.. هل للعاطفة دخل بهذا؟

أونج: نعم، ولكنها ليست عاطفة الذكر والأنثي..وإنما يشعر الناس عامة وأهل الصيد والترحال خاصة بأن الرحلة بين ضفتي البحر تزداد في الوقت.. وكأن اليابسة تتباعد.. لا نعلم كيف، ولكنني في آخر رحلاتي راودني ذات الشعور... لم تعد باليسر الذي رواه لنا أجدادنا.

ليوندا: ربما شعرت بهذا لكثرة الحديث عنه من حولك!

أونج: لا أعتقد أنني أنتمي لهذه الطائفة من المتأثرين.. ولكن هناك أشياء جديدة لا تفسير لها، لما نحتاج لأن تكون قواربنا أكثر قوة من ذي قبل ! إلا إذا كانت لتبحر أكثر من الذي كانت قواربنا تبحره سابقًا؟!!

لماذا باتت تأكل الطيور كثيرا بعد هجرتها ! إلا إذا كانت تطير أكثر مما كانت تطيره من قبل؟!!

يوما ما سيفكر الناس مرارا وتكرارا قبل أن يتواصلوا ببعضهم البعض!!

ليوندا: أتعلم أونج، هناك شيئا ما في ذاكرتي، لكنه ليس واضحا

كفاية، شيئا حول ذات ما تصفه الآن، لا أعلم، ولكن هناك رواية تروى في قريتنا على جزيرتنا تقول بأن هناك أختين تزوجتا، ورحلت إحداهن للشمال، وكلما أردن زيارة بعضهن البعض خرجن صباحا ورجعن ليلا، وهو بالطبع ما يستحيل فعله الآن، لا أعلم هل تروى هذه الأقصوصة لمدح زيارة الأقارب والتواصل، أم أن بها شيئا من الحقيقة؟ ولكنني لا أعترض على زيارات الأختين لبعضهن البعض، فقط حديثك جعلني أتفكر، كيف تكون الرحلة والعودة في ذات اليوم !

أونج ضاحكا مستسلما، ليتك ما تذكرتي هذا أبدا أميرتي ! الآن وبات الشعور يؤيده أكثر من راوي، هو الحقيقة ولا شيء سواها.

****

تكلمي.. كفي عن تلك القواعد الصارمة قبل بدء الحديث..أونج:

لا توجد قواعد لكني لم أعتاد يوما البدء بحديث.

ليوندا: أونج، ولِمَ هذا؟

لا أعلم.... ليوندا.

تسير خطوات الصديقين نحو شاطئ الأرض الجديدة مرة أخري.. وهو توافق على ما أراده الاثنان.. توافق لا اتفاق.

ولكن هناك بعض المارة يسيرون..مفترض ألا يعكر هذا الصفو على صديقين أبدا.. وبالتوافق أيضا ذهب الاثنان بحثا عن الهدوء بعيدا عن المارة.

أونج: أتعلمين لماذا رفضنا أن نكون بجانبهم؟

ليوندا: لم أرفض.. فقط أتبعك دون اعتراض.

أونج: ولم هذا الاستسلام؟

ليوندا: لا أعرف.. دعنا نقول لأنك خبير بمعالم المنطقة..

أونج: لا

ليوندا: حسنا.. ربما لأنك أحسنت الاختيار في المرة السابقة.

أونج: لا

ليوندا: ماذا ترى أنت؟

أونج: لأنك تعلمين من أنا وماذا أريد.. و يريحك وضوح المعالم.

لم تجادليني عندما تحدثنا أن لكل منا اسم.. ولكنك حتى الآن لا تدركين أن لكل منا رمز.. فأنتي على سبيل المثال رمزك: الرونق الملكي.. حتى وإن مرت عليك أيام بلا طعام، وحتى أن رثت ثيابك فلن تفقدي هذا الرونق أبدا.. وإن كنت اخترت لنفسي أن تري مني النقاء.. فإني أحوي أكثر من رمز.. من الجيد أنك لم تري حتى الآن منها سوى هذا.

ليوندا: وأنت.. ما هي باقي رموزك الأخرى؟

دعيني أختصرها لك فيما سبق وإن أوضحته.. رمزي الأوحد هو الجسر الفاروسي.. الجسر الذي يربط بلادي ويقربها من حيث أتيت أنت.. فيجعلني أقترب منك وقتما أشاء.

ليوندا: وكباقي الرجال يعطيك الطريق لتبتعد وقتما تشاء أيضا.

أونج ضاحكا: تعجبني سطحيتك في التفكير؛ لأن هذا يؤكد ما تعلمته من الفلسفة المصرية الخالصة، فلا ينمو شيء في الإنسان إلا على حساب شيء آخر.. وجمالك قد نما على حساب كل ما بك.

ليوندا: أهذا مدح أم سباب؟

أونج: هذه فلسفة مصرية.

أونج: ليوندا... لأنك تعلمين ماذا أريد.. هاتان العينان حادتا الذكاء تميز بين الصديق والعاشق.

ليوندا.. تقول هذا لأن مثلك لا يأتمن إلا من يحبه.

أونج: ألا زلت لا تستطعين الإجابة؟

ليوندا: أونج.. لا يوجد ما أحدثك عنه بالماضي.. فلا يوجد نواة فخر أو بذور عار.. إنه كالصفحة البيضاء التي لم يتطوع أحد للكتابة عليها.. كان دائما يتوافر رجال.. ولكن رجال لا يجيدون الكتابة.. إنَّا كالفراشات في مدينتكم.. بيضاء.. وإن تمس الزرع والأزهار تلونت بألوانهم.

وردودي التي أعتبرها بل أعلم علم اليقين أنها باردة كالثلج هي الجدار الذي يصد فيضان إحساسي في كل مرة ينجرف فيها عن مساره الذي وضعت أنا له.

كنت دوما أسأل نفسي ماذا بعد؟! ألا يوجد منطق أو حساب يكشف قواعد الحب المتبادل بين الطرفين.. إلى متى سأظل كطالب

العلم الكسول الذي يتجنب حلقات العلم ليتفادى سخرية زملائه؟!

أونج: تظلمين نفسك يا ليوندا... مع من تتحدثين إذا شعرتي بالملل؟؟

ليوندا: لا أحد.. فأي رجل يكون شهوانيا طامعا.. وأي امرأة إما تريد الزواج بأبي وتتخذني ذريعة لهذا، أو تريد التودد لطلب مصلحة ما... ضالتي الأزلية وجدتها هنا... ولكن ماذا بعد.

أونج: نكون سويا....نتعاهد أن نظل سويا.. لن أدعك ترحلي من هنا أبدا..

ليوندا: أيها الحالم.. متى وكيف كل هذا الحب.. بالكاد تعرفني.

أونج: انتظرتك طويلا.. حتى إنني لم أعد أتذكر منذ متى وأنا أنتظر!!

ليوندا: وأنا أونج لا طالما انتظرتك في جميع أسفاري.. فقط أريد أن أتأكد ما إذا كانت عشيرتك تملك الدواء لما أعانيه من خشية الظروف .

أونج: أنا وطنك وأنتي وطني.. فلا يفارق منا وطنه أبدا.

ليوندا: أقسم الولاء لك ولا لسواك أبدا.. مهما كان الثمن.. وأقسم على احترام كل الصدف التي جمعتنا سويا.

أونج: كنت أود أن أقسم.. ولكنني أقسمت مسبقا متى رأيتك أول مرة.

****

لم تسمح كرامة وكبرياء الشيخ أن يظل هكذا بلا عمل.. فهو أعلي من البضائع التي لم ولن تباع في الأفق القريب.

عاد مرة أخرى كما كان في شبابه لا يملك سوى ساعديه وإرادته، وكثيرا ما يعيش هذا الرجل ذات الموقف.. ولكن صديقه كبير التجار الأجانب لن يبخل عليه بتوصية في عمل لكسب الرزق.. نعم سيعود أجيرا مرة أخري... وليؤجل نشاط التجارة لإشعار آخر.

إمبيرتو: لم لا تشارك أحد الصيادين قاربه؟

الشيخ: مبتسما.. كان هذا منذ زمن بعيد.. كنت لا أزال صبيا ولديّ من خزائن الصبر ما لا ينفذ.. والآن صرت أضيق ذرعا بنفسي ودون سبب.

إمبيرتو: كفاك أيها الشيخ.. لا تتكاسل.. أنت شيخ وقور، وتاجر أمين.. فأنت فرصة للعمل، وليس العمل هو الفرصة لك..

ابتسم الشيخ و تحرك بالموافقة... وذهب مع إمبيرتو لمقابلة صاحب القارب.

عمت مساء يا ناد.. كيف حالك وحال قاربك؟

ناد: بخير.. ولكن انشغال ولدي الوحيد بما لا ينفع ولا يضر يؤثر على حالي.

إمبيرتو: أونج شاب ممتاز ولا تتحامل عليه، فلديه أربعة معجبات في منزلي أنا فقط.. ويضحك الجميع

إمبيرتو: أين هو بالمناسبة...

ناد: لا أعلم.. في الغالب يصلح الشباك وسيعود قريبا.

إمبيرتو: أقدم لك صديقي يا ناد.. فهو تاجر أجنبي أيضا جاءت به تجارته إلى هنا فقرر امتهان الصيد.

مرحبا بك

شكرا لك

إمبيرتو: ناد.. أتمني لو تقبل إشراك صديقي في العمل معك على متن القارب.. وهذه هي حصته من الشراكة.. أنت يا ناد تحتاج لمن بجانبك على الأقل حتى يكف أونج عن الانشغال بما فيما لا ينفع ولا يضر.

ناد: حسنا يا صديقي.. لكنني لن آخذ سوى نصف هذا المبلغ فقط.

إمبيرتو: أتجاملني وأنا كبير التجار الأجانب يا ناد؟

يرد ناد مبتسما: كلا.. ولكن في الحقيقة الهيبة التي في شكل وملامح صاحبك ستضيف على عملي الاحترام و الوقار في السوق؛ وهذا ما قد كنت لأدفع لأجله.

وضحك الثلاثة بشدة ..

حسنا يا صديقي أراك عما قريب.. وأنت يا شيخنا.. أره عجائب البحر أيها المغوار..

يبتسم الشيخ بسمة الناجين من الغرق.... و ينصرفون.

مشكلة في التقاليد.. التي لا يعرف لها أصل.. لا يجوز للضيفة أن تخدم أهل المنزل.. فلا تستطيع ليوندا تمضية الوقت في أعمال المنزل.. حتى في الديار، ومع وفرة المال كانت ليوندا تستبدل المتسخ بنظيف جاهز و الشيء القديم بآخر جديد.. فلا مجال لديها لمفهوم بذل العناية... وبعض القديم يتحول لتحفة تحترم.. ولا تستبدل بجديد أبدا، ولكن لا يزال هناك مدخلا .. الطعام، فلم يحدث من قبل أن عاد الشيخ لبيته ولم تكن ليوندا قد أعدت الطعام.. تدخل ليوندا في منزل إمبيرتو على الأم.. هل أعد لك بعض الطعام الإغريقي؟

تبتسم الأم.. بالطبع.. فأنا عاشقة لكل ما هو جديد، وهي فرصة أيضا كي أرتاح من عناء كل يوم.

أخذت ليوندا روما وذهبتا للتسوق..

روما: أتعلمين من شريك والدك الجديد في العمل؟

ليوندا: نعم رجل من أهل البلاد واسمه ناد.

روما: هل تعلمين أبا من هذا؟

ليوندا: لا... أبا من يا ترى؟

روما: أونج.. توقفت ليوندا في لحظات، ثم تسارعت وتيرة حركتها من الإمساك بالمشتريات والخطوات العائدة للمنزل.

مر بعض الوقت.. الطعام جاهز.. الأم وبناتها الثلاثة منهمكون في الطعام الغريب عنهم.

أما ليوندا.. فاختارت لنفسها مهمة أخري

ستذهب بالطعام إلى أبيها.. فهو لم يعد الشاب الذي يقوي على الصمود على الجوع حتى موعد الرجوع.. كما أن الشاب الذي يقوى على الصمود... والذي تعشقه هي.. قد يكون هناك.. مما يجعل الطريق أجمل من مجرد واجب.

كانت في كامل زينتها... حقا أميرة إغريقية.. وفي هذه الأثناء كان الحديث بين أبيها وشريكه ناد

الشيخ: وطني هو عملي يا ناد... هكذا علمتني الحياة.

أقسم لك أنني لا أعرف أماكن كثيرة على الجزيرة التي ولدت بها.. لعل الطفل الذي يلهو ويهرب من أمه عليم بها أكثر مني.

ناد: هذه من شيم الرجال يا صديقي.. شموع تضيء لأجل الآخرين.. عجبا لما لا ترانا النساء كذلك!!

ويضحك الاثنان.

الشيخ: وعلى ذكر النساء.. تتشابه الأوقات والأيام، منذ أعوام.. لا املك سوى جوهرة واحدة هي كل ما تبقي لي بعد رحيل زوجتي... ابنتي ليوندا.. هي التي أدفع عمري كي أصونها.

ناد: وعلى ذكر الفتيات... من تلك القادمة نحونا

الشيخ: عجبا إنها ليوندا؟!

ليوندا: أحضرت لكم بعض الطعام يا أبي.. كيف حالك سيد ناد.

ناد: بخير يا ابنتي شكرا لك.

الشيخ: ليوندا لا ترهقي نفسك في إعداد الطعام لي هكذا مرة أخري.. لا يزال أبوك قويا ليتحمل..

ليوندا: تحمل.. لكنني سأطعمك متى أشاء يا أبي.

ناد: لدينا فرصة لنتناول الطعام سويا.. لم يأتي أونج حتى الآن.

الشيخ: بلي قد أتي.. ها هو..

..عمت صباحا يا أبي.. عمت صباحا أيها الشيخ

أهلا أونج... هيا ضع الشبَاك واذهب أنت.

حسنا... هيا بنا يا ليوندا.

الشيخ: هل تعرفان بعضكما؟

أونج: نعم تقابلنا في السوق من قبل.

الشيخ: إذن أونج من فضلك أوصلها إلى البيت، لا أعلم متي سوف نعود، وأريد أن أتأكد أنها ستكون بخير.

ليوندا: لا تقلق يا أبي.

ويسير العاشقان ويبحر آباؤهما بالقارب.

وهاهي فرصة أخرى للعاشقَيْن أن يتبادلا ما تزخر به عوالمهما المختلفة.

هل حلمتي يوما بأن فارسك سوف يكون من الجنوب؟ أو حتى تخيلتي أنك أنتي من ستأتين إليه ولن يكون هو الذاهب إليك؟

تضحك ليوندا بشدة: عشقي... وإن حلمت بهذا فلم يكن الحلم

ليصل أبدا بأن يودعني أبي أمانة لديه.

فأبي غيور بشدة.. أما ما حدث توًّا هو أن أعطانا الإذن أن نكون سويا.. قال لك أن توصلني للبيت، وأما موعد هذا الوصول فلا أحد يحدده سوانا.

تضحك ليوندا وتجري يتبعها أونج... يكاد صوت ضحكهما يُسمع شعوب الضفة الأخرى من البحر .

وفي ذات الشاطئ.. وبعد أن أنهكهما الركض ..

وماذا كنتِ تفعلين أميرتي على جزيرتك حين لا تفعلين شيئا.

ليوندا: حسنا.. غسيل الأواني والبرْكة، والذهاب للشاطئ ثم البحر،

أونج: أرى كثيرا من المياه في حياتك السابقة.

تضحك ليوندا: أونج لكل مكان سببه.

فأنا على سبيل المثال أمهر فتيات جزيرتي في الرمق بنظرات الاحتقار.

ماذا تقصدين يا مجنونتي بنظرات الاحتقار، وكيف تبرعين بها !

..حسنا ولأنك أجنبي، فسوف أشرح لك ماذا تعني تلك النظرات.

عندما نتوجه كفتيات للبحيرة ونستحم بها ونخلص منها.. نجلس على شاطئها قليلا لتمشيط شعورنا وتجفيفها.. وفي تلك الأثناء يمر بعض الفتيان محاولين إلقاء كلمات الغزل والإعجاب.. فنتبارى أي منا

نحن الفتيات سينظر لهم نظرة احتقار وازدراء، وصاحبة النظرة الأقوى دائما هي التي تفوز؛ لذلك أفوز أنا.

وكيف تعرفين وصديقاتك أنك صاحبة نظرة الاحتقار الأكثر قوة، وليست إحدى الأخريات منهن؟

سؤال ذكي من حبيب أذكي: يمكن استنتاج هذا من ملامح الشاب بعد أن يُنظر إليه مباشرة، فهناك وجوه تتجهم، وأخري تغضب، وأخري تفر من خجلها!!

أهذا كله فقط لأنهم أرادوا الامتداح والتقرب؟

ليوندا: أو يكون التقرب للشخص أثناء عنايته بنفسه وتنظيفها؟

حسنا.. أنت الفائزة في هذا.

ليوندا: ثم إنه لا رجل راقٍ يفعل هذا.

أونج: وماذا تعلمين أنت عن رقي الرجال؟

ليوندا.. كانت جملة عابرة فلا تصنع منها معركة.

أونج: وإن كانت غرائزي تدفعني للشجار معك، إلا أن الوقت ليس للشجار الآن.

أونج: أريد أن أريك شيئا.

ليوندا: ماذا؟

اتبعيني وسوف تعرفين.

مشى الاثنان من الشاطئ حتى وصلا لبقعة لا ترى فيها المياه.. فقط يابسة صحراوية لأرض لا حصى في رمالها، وحتى الكلب الصغير

الذي كان يلعب معهما تركهما يكملان الطريق دونه خشية أن يضيع، أو ألا يدرك العودة مرة أخري.

ليوندا: أونج هذه أول مرة تصحبني فيها إلى مكان كهذا... لم أكن أظن أن أرضا أخرى تستهويك.

لا.. لست هنا لأريك الأرض.. وإنما لأريك شيئا آخر..

ماهو ذلك الشيء الذي خرجنا إلى تلك الصحراء من أجله !؟

وصل أونج إلى كوخ صغير منعزل في الصحراء.. وعندما بدأ خيال ليوندا يشك في حقيقة ما يريده أونج لأنه رجل مثل باقي الرجال.. نصفه ذئب ونصفه الآخر إنسان مستقل بغرائزة التي لا تقل في وحشيتها عن الذئب.. فوجئت بقوله لها: انتظريني هنا سأدخل لأحضر شيئا من الداخل.

فانقلب الشك في نوايا الرجل إلى شك فيما يخفيه عنها داخل الكوخ حتى إنها فكرت في اقتحامه لمعرفة ما به ..

وما هي إلا لحظات وخرج أونج من المنزل يحمل في يده بضع لوحات مرسوم عليها بالمصرية القديمة.

وما أن رأتها ليوندا حتى صاحت: جدتي !! من أين لك بهذا أونج! وكيف وصلت تلك الرسومات إليك!!! تلك !!رسومات جدتي ... أجبني أونج كيف حصلت عليها !

فزع أونج من فـزع ليونـدا: اهـدئي اهـدئي حبيبتـي لـيس تلـك الرسومات لأحد... فقط تشبه تلك التي تعرفيها.

نسيت ليوندا في تلك اللحظات أن تتـنفس... وعنـدما استنـشقت أول هواء بعد الذهول أخذ عقلها في الهدوء... وظلت عيناها تتـسع حتى خشي أونج عليها أن تفقد البصر !

أونج: أتدرين معني تلك النصوص؟

نعم أدرك معناها في المجمل.. بـل بعـضها فقـط.. كانـت جـدتي تقرأ لي القصص من تلك النصوص، وعلى مثل تلـك الأقمـشة كانـت تجيد قراءة تلك النصوص وأنـا أيـضا أعـرف معناهـا.. عنـدما كنـت بعمر.. بعمر أصغر لا أدري

أونج: حبيبتي ..... اهدئي وحاولي التكلم برويـة.. فأنـا لا أفعل سوى أن أصغي إليك.

ليوندا: أونج أنت لا تدري قيمة تلـك الرسـومات بالنـسبة لـي.. فهي الطفولة وما قبلها.

أونج: الآن وقد بت أدرك.. أكملي ماذا عن جدتك؟

ليوندا: نعم كانت تحتضني وأنا صغيرة وتحضر أقمشة وأطباق بهـا تلك الرموز الكثير منها، وكانت تقص لي منها أقاصيص، وأبات أحلم بها كل ليلة.. وعندما كبرت قلـيلا أصـبحت أختـار أنـا الأقـصوصة لتقصها علي مرة تلو الأخرى.. كنت أعـرف الرمـوز إذا شـكلت اسـم القصة ... قصة أحبها كثيرا.

أي قصة يا ليو؟

كانت هناك قصة لشاب من الجنوب أتي لجزيرتنا في زمن كانت جدتي فيه لا تزال في صباها، وارتبط هذا الشاب بإحدى الفتيات من وطني، ثم لم تسعفه الظروف فرحل عن الجزيرة كلها، ثم دوّن الشاب قصة العشق تلك على طبقين و أقمشة.. بالطبع مواقف معينة مر بها العاشقين.. وكان طلبه منها هي أن تقص ما دوّنه هو على مسامع الآخرين دائما.

أونج: ومن كانت تلك الفتاة؟

ليوندا: لا أعلم.. فلم تخبرني بأنه مدون في الكتابات أسماء.

أونج: بالطبع.. لأن صاحبة القصة هي بنفسها التي كانت ترويها لك.

عجبا لقناعتك ليوندا ! ألم تتعجبي كيف بقيت تلك النقوشات مع جدتك بالذات، وحتى لم تبقي مع صاحبة القصة على الرغم من أنها تملكها !! وإن كانت قد أعطتها لجدتك، فلماذا لم تروي لك قصة هذا العطاء وظروفه؟

توقفت ليوندا للحظات.. اتسعت عيناها مرة أخرى من الذهول، ولكن هذه المرة أزيد من المعتاد.. ثم اندفعت تجري وتنادي أونج بينما هو خلفها.

كانت هي جدتي ... كنت أنام على قدمي بطلة القصة دون أن أعرف.

توقفي ليوندا ... لم يفتك شيئا.. كان الوقت مختلفًا حتى طريقة كتابتهم لا نفقهها بالكامل.

أنا حزينة لأجل جدتي.. الآن علمت لما كانت لا تنطق أسماءهم، علمت لم كانت لا تتحدث عن تلك الكتابات كثيرا سوى أن تحكي ما فيها بصيغة الواجب الحتمي، والوفاء بالوعد لا أكثر ولا أقل.

ليوندا.. حبيبتي ... دعينا ممن لم يكملوا أمرهم.. دعينا نسعى نحن أن نتحكم فيما نعيشه، أو في جزء منه على الأقل.

أحضرتك لهذا المكان كي أريك كيف أدون تاريخ رحلاتي.. كلما التقيت قارب عليه وجوه لا أعرفها تبادلت معهم الأسماك في مقابل ما هو من غير أسماك من المنحوتات أو الكتابات التي حتى لا أعرفها ... كنت أستعمل لغة الإشارة الموحدة منذ قديم الأزل.. حتى بت أظن أن لغة البشر الأوائل كانت الإشارة ثم نطق الناس عندما تفرقوا فقط أشير إلى ما معي من أسماك ثم أشير بعدها إلى ما في قاربهم، فإن أشاروا بالموافقة تمت الصفقة في ثوان

أهكذا تحدثني لغتنا بسهولة.

لا يا جميلتي.. فأنت من الجزر المقابلة لساحلنا وإن كانت تختلف في اللغة عن تلك الخاصة بنا، إلا أنها ليست بالشيء الصعب.. أتحدث عن قوارب تأتي من أماكن أبعد بكثير عنا.. حتى إن ملامح الوجه تبدأ في التعبير عن تلك الحقيقة قبل الحديث أو الإشارة

يا ليت كنت مثلك يا أونج.

حينها ما كنت لأقترب إليك حبيبتي

لما تقول هذا؟

يخشى الرجل مخلوقان: السباع.. والمرأة الذكية..

بدأت ليوندا في الابتسام قليلا متحررة من قصة جدتها وما مرت به مع شاب الجنوب قديما.

أونج: والآن أخبريني.. كم رسما تدركين من تلك الكتابات.

كانت هذا آخر سؤال لأونج قبل أن تجحظ عيونها الملونة بشكل أضحك أونج في الرسومات.. وتدخل في سبات عميق.

حسنا ... أونج ... أعلم هذا المفتاح.. وأعلم أيضا هذا الطائر، وأعلم أيضا أصواتهما.. ولكن لا أعلم ما بينهم.

حسنا حبيبتي. فقط تعلمين ما يدلك على أي قصة وموقف تريدين أن تقرأ لك جدتك.

ليوندا: نعم محبي، هكذا كان الحال.

أونج: لا تقلقي، فقط كل ما عليك أن تتعلمي قليلا من الرسومات ثم الأصوات.. وبمرور الوقت تكونين مثلي أو أمهر مني في اللغة الخاصة.. صحيح ليس بقدم تلك التي تقرأها جدتك، وإنما كافية لإدراك المعاني.. حبيبتي لا تشغلي عينيك وبالك كثيرا بالصور والرموز.. فهي تدل على وجهة نظر في المقام الأول

ليوندا: كيف يا هذا؟

أونج: .. إن كنا أنا وأنت صانعي الأبجدية ونختارها سويًّا ومعًا لكنتي رمزا لما هو جميل، وكنت أنا رمزا لما هو طامح للجمال...

وإن كان الجسر الفاروسي رمزًا.. لجعلناه للحب؛ لأن معناه في الحب لا يعلمه سوانا نحن فقط.. حتى الجرو الصغير الذي كان يتبعنا ثم تركنا.. فإن شئنا اعتباره شجاعا كان الكلب في أبجديتنا شجاعة وإن كان جبانا صار كذلك.. نحن من نصنع الأبجدية حبيبتي...

ورغم ذلك لم أستطع قراءتها مثل جدتي يا أونج!!

أونج: كان زمنا مختلفا يا ليو، وما يدريك أن الجسر لم يكن موجودًا بيننا في يوما ما! !

ليوندا: و زال الجسر بتباعد الأرض واتساع البحر كما تشعر أنت وأهل مهنتك!

أونج: بل بتباعد القلوب وشتات الألسن حتى بات كل بشري يتفانى أن تكون له نبرة لا تشبه أخيه الآخر.. لولا تفرق القلوب ليوندا ما كانت اليابسة لتتجرأ على التباعد هي الأخرى، وكفى عن ذكر هذا الأمر أمام العامة، فلا نريد أن نردد ما يخيفهم، وإلا ينسون ما يخيفهم ويكرهوننا نحن !!

تساعد ليوندا أونج في ترتيب الأطباق بعد أن ناقشاها... ويعاودان أدراجهما

****

وفي هذه الأثناء.. في البحر... وكان جريان الموج بالرياح يدفع قارب الشيخ و شريكه ناد عن مساره إلى حد ما هدأت الأمواج وسكن القارب كما هو.. كانت فرصة للاستراحة من إرهاق تثبيت الشراع.

ناد شعر بالإرهاق إلى حد الإعياء... فأغمض عيناه مطمئنا لوجود صياد آخر معه على متن القارب ....

بينما الشيخ يلتقط أنفاسه، ويحدث نفسه بأن تلك الرياح لا تؤثر في الرجال ذوي الشدة من أمثاله... وينظر لصديقه الذي غلبه الإعياء المؤقت مبتسما شاعرا بزهو قوته.

ربما كان على الحق... فالرياح قد لا تخيفه.. هذا صحيح... فرحلات ساكني جزر البحر المتوسط إلى أقاصي شمال هذا البحر تجعل مثل تلك العاصفة أمرًا معتادًا.

بات القارب نفسُه كجزيرة صغيرة.. البحر هو مرماها ومداها من كل جانب.. ظن الشيخ أن الانتظار قليلًا حتى يسترد ناد قوته أمرا لا يضر... فجلس متفرجا على البحر في بقعة منه يراها جديدة.

وما إن استدار برأسه حتى شاهد ما جعله يحسد ناد على إعيائه ووقف متيبسا أمام ما رأى.

مئات الأشجار متساوية بجانب بعضها البعض تربطها أربطة تجعل منها أرضًا يابسة كبيرة في منتصف البحر، وفوق هذه الأرض أغصان شجر أقل في الحجم، وفوق تلك الأخيرة أخرى أقل.. حتى تصل لقمتها، وفوق القمة هناك راية... وهناك شخص يراقب البحر.. عليها

بشر يبدون كجنود، وحيوانات عدة وماشية.. ويسير هذا الكيان العملاق في طريقه في البحر بقوة وحجم لا يجعل عاصفة كتلك التي قابلت الشيخ وناد سوى نسمات خفيفة لهذا الكيان الذي يبدو كجزيرة متحركة.

ظل الشيخ ثابتًا لا يتحرك حتى انتهي هذا المشهد بدخول تلك القلعة العائمة في أعماق البحر..

وعندما استعاد ناد وعيه وروى له صديقه ما حدث...

ناد: لم أر مثل هذه الأوصاف في حياتي يا رجل ! أواثق بأنك لم تكن تحلم؟

الشيخ: ناد، كف عن هذا، أنت تعلم جيدا أنني صادق.

ناد: عذرا يا صديقي، ولكنك تروي لي ما لم أسمعه أو أراه قط في حياتي، ولا رواه لي أيا من الصيادين من قبل، ولا حتى الأجانب منهم.

الشيخ: حسنا حسنا... أعلم أنه غريب، ولكنه ما حدث.

ناد: هل رأيت عليها بشرا؟

الشيخ: نعم

ناد: لما لم تلقي التحية عليهم وتدخل في الحديث؛ لربما فهمت مَنْ هم، واستيقظت أنا، وصرنا شاهدين !

سرح الشيخ بشدة في سؤال ناد... لماذا لم يتفوه بكلمة قط؟ كانت الإجابة سريعة ومغيرة لشخصية الشيخ تماما، لقد شعر بالخوف... كانت

هذه أول مرة يراوده فيها هذا الشعور منذ فترة بعيدة... فكر... ماذا لو لم يرتاد البحر مجددًا... ماذا إذا عاش على اليابسة ما بقي من المستقبل.. ألم تحن لحظة الاعتزال بعد !

وبعدما عاد الشيخ وناد دون سمك من هذه الرحلة، ورويا ما شاهد الشيخ على مسامع أسرة كبير التجار، وأونج وليوندا.

ناد: هل تعلم ما قد يكون ذلك الذي رآه صديقي يا بني؟

أونج: حسنا، يا شيخ، هل كان جميع البشر الذين رأيتهم يرتدون نفس الزي؟

الشيخ: نعم، جميعهم.

أونج: أكان هناك بشرًا آخرين؟

الشيخ: لا لا، فقط هؤلاء، وحيوانات كثيرة، وبرج به مراقب، وفوقه راية.

أونج: راية؟

حسنا لا أعلم ما قد يكون هذا، ولكن عليك بالاحتراس مما لا تعرفه يا شيخ، وأنت أيضًا يا أبي.

وفي صبيحة اليوم التالي.. أونج وليوندا بمعزل عن المارة كالعادة.

ليوندا: أونج، أخبرني أحقا لا تعلم ما ذلك الشيء الذي رآه أبي؟

أونج: حسنًا.. أعلم، ولكن لن يجدي تفسيري له، ولا الكلمات التي سأفسر بها نفعا لأباك.

فهناك سعي ما، في بقعة ما، من قوم ما؛ لهزيمة قوم آخرين... ربما ما رآه كانت غنيمة المعركة... لا يسعي الإنسان لبناء ما يفوقه هو ذاته حجما إلا لهزيمة إنسان آخر مساوٍ له في الحجم...

ألا تعلم من قد يكونوا هؤلاء أونج؟

أونج: لا.... قد بات البشر لا يعرفون بعضهم البعض... ربما كان أجدادنا وهؤلاء أهل.. وجعلَنا تباعدُ اليابسة نجهل و نخشى بعضنا البعض

****

كان صباحا توافق فيه الجميع على أن يكون عطلة بلا مبرر... فلا يمكن أن يوهب البشر كل الأيام للعمل والبحر.. إمبيرتو في رحلة إلى خارج المدينة.. البنات في زيارة لأصدقاء في الجنوب... لا يتبقي سوى الأم، وليوندا مع أبيها في الغرفة المخصصة للضيوف، والملحقة بمنزل إمبيرتو...

ليوندا: اشتقت إليك يا أبي وإلى يوم عطلة كهذا...

الشيخ: وأنا أيضا حبيبتي.. لكن الرجل لا يشعر بالراحة إلا بعد عمل شاق.. هذه هي شيم الرجال..

ليوندا: أعرف يا أبي.. لهذا أعددت لك أصناف الطعام التي تحبها...

الشيخ: لم أر تلك السعادة على وجهك من قبل..

تيقظت ليوندا ثم بادرت أباها بانطباع.. وأنا يا أبي لم أرك بهذا الرضا من قبل..

أعتقد أننا أحببنا المدينة يا أبي...

ويبتسم الاثنان ابتسامة الرضا...

أبي.. سأذهب لإحضار بعض المشتريات... ستسعد زوجة إمبيرتو كثيرا بهذا..

الشيخ: حسنا.. اعتني بنفسك جيدا...

وبطبيعة الحال لم تكن سعادة أم روما هي الدافع، بل هي رحلة أخرى لليوندا تمر بالأرض الجديدة التي يتبادل فيها العاشقان كل ما في قلبهما لبعضهما البعض..

وفي هذه الأثناء في بيت إمبيرتو..

طرق الباب...

تفتح زوجة إمبيرتو الباب.. فإذا بشاب يبدو عليه بهاء المظهر أمامها...

الشاب.. عذرا سيدتي.. أهنا يقيم الصياد شريك ناد؟

الأم: نعم. في المنزل المجاور.. من أنت؟

الشاب: اسمحي لي أن أذهب إليه..

الأم: عجبا.. لما لم يُجِب؟

وعلى باب منزل الشيخ

طرق الباب

ينادي الشيخ: ادخل

الشاب.. فيم تنظر أيها الشيخ ألا تعرفني؟

الشيخ: نعم تشبه شخصًا ما.. من أنت؟

الشاب: أنا باتروس.. بغض النظر عن الألقاب الأخرى التي كنت تسابق نفسك في إعطائي إياها.. الصبي.. الغلام.. الولد.. المساعد.. كانت أعلي رتبة حصلت عليها منك هي المساعد...

الشيخ.. ويكاد الذهول يجنه... باتروس؟؟ أهذا أنت حقا؟؟ متى وكيف؟

باتروس: اهدأ.. ألديك ما يُشرب في هذا المكان؟

الشيخ: لا.. ولكن هناك بعض الطعام من الأمس..

باتروس: إذن هيا بنا إلى الساحة، لن أطيل عليك الحديث.

....

وفي الساحة

باتروس: أنت لا تعرف شيئا عني أيها الشيخ.. من أنا ومن أين أتيت !.. ومن الواضح أنني كنت في أعلي اهتماماتك.. فمنذ أول وصولك لم تبالي أين ذهب رفيقك في الرحلة.

الشيخ: ظننتك ذهبت ووجدت عملا آخر مجدٍ أكثر مني..

باتروس: لا تزال بارعًا في نزال الكلمات أيها الشيخ الطيب.. وإن كان هذا ليس بمبرر.. إلا أنني لم أعمل حتى ولو ليوم واحد..

الشيخ: كيف هذا؟ وأنت يبدو عليك ثراء من قضى سنوات يعمل

بربح دون ساعة واحده خسارة؟!

باتروس: حسنا.. كنت أيها الشيخ في جزيرتنا تختار شابا يساعدك في الرحلة.. وتطوعت أنا لك منذ علمت أن هذه الرحلة متجهة إلى مصر.

كان أبي يعمل بالتجارة هنا منذ سنوات ثم عاد إلى الوطن وضاق به الحال.. لكن بالطبع لا يزال هناك من هو مدين لنا بالكثير أو بالقليل الذي أصبح منذ طفولتي الفقيرة وحتى الآن كثيرًا..

وأصبحت مهمتي هي تحصيل ما لنا لدى الغير.. ولو كنت أخبرتك لكنت طلبت مني مقابل.. أو حملتني بدافع العطف والشفقة.. وما كنت لأقبل كليهما.

ففضّلت أن نكون شريكين، على أن نكون سيد وخادم... وأنا لم أتقاضى منك أجرًا.. فلم أكن يوما ملزما أبدا بطاعة لك.

أما في البحر... فكلنا في طاعة البحر... وإن فكرت مليًّا أيها الشيخ ستجدني لم أنصاع لك أبدا.. أتعلم لماذا؟

الشيخ: لماذا؟

باتروس: في بلادنا لا يتزوج السيد أبدا من الخادم.. مهما زاد غنى الخادم.

الشيخ... زواج؟ لا أفهم شيئا؟

باتروس: العرض كالآتي: نعود لجزيرتنا.. وتصبح مالك لأي بيت تختاره أنت.. ومكان تبيع فيه بضاعتك، بل وبضاعة جديدة، وسداد

لكامل ديونك في مصر وفي الجزيرة.. ورحلة منظمة كل عام إلى أثينا..

الشيخ: وما مقابل كل هذا.

باتروس: ليوندا.

بت الآن جديرا بها.. وتذكر.. لم أكن خادما لك يوما !

ظل الشيخ ساكنا حتى جاء الليل وهو وليوندا بجانبه ساكنان كالجماد.

نعم يريد الزواج بك.

ليوندا: من كنا حتى لا نعرف له اسما !

نعم، أصبح سيدا نبيلا.. بل وبطلا مكافحا، وابنا بارًّا بأبيه.

ليوندا: هل أعجبت به يا أبي؟

إطلاقا.. ولكنني أشعر أني محاصر.

ليوندا: لم أحبه، حتى لم تكن لي فرصة أن أعرفه.

من يتملك هذه الحيلة والثراء هو من أئتمنه عليك ليوندا.. أريد أن أعود للديار ليوندا.

ليوندا: أبي.. أحببتُ شخصا هنا.. وأظنك تعرفه.. أونج ابن شريكك ناد.. وأقسمت ألا أتركه أبدا.

بإمكاني إن أجبرك إن أردت.. ولكن تعقلي.. سوف أكيف هذا الحب على أنه خيانة للأمانة.. فمن أئتمنته عليك في الطريق سرق قلبك، وجعلك تحبيه!!

ليوندا: حسنا يا أبـي.. وفي المقابـل مـن ائتمنتـه بالفعـل للعمـل عندك وحماية مصالحك أثناء رحلتنا، كان طامعا في ابنتك الوحيدة.. فكل ما كان خيرا فيه كان سلوكا مصطنعا.. أهذا التفسير يرضيك يـا أبي؟

كلا.. كان يريد جمع ماله.. أما أنت فلم تكوني في اهتماماته.. فلو كنت حملت معي قردا في الرحلة بدلا منك أكـان هـذا يثنيـه عـن مرافقتي ليوندا؟ ثم إنه لم يتقاضى مني أي نقود.. فهل تـدركين معنـى هذا لدينا نحن التجار؟

ليوندا: نعم يا أبي وهذا دليل على أنه كان يطمـح إلـى مـا هـو أكثر مما كان يظهره لك..

لا يهم.. أريد أن أعود للديار يا ليوندا.. أوصـليني أنـت هـذه المرة إلى هناك.

كان يحمي بضاعة يعلم أن له نصيبا فيها.. ألم تعلم ذلك بعد يـا أبي؟

خرجـت ليونـدا تبـك.. وكـان قلبهـا أول مـا يجرفـه فيـضان إحساسها.. وضفتي النهر كانتا أباها والذي بات طفـلا صـغيرا يجـب عليها أن ترعاه.. وحبيبها الذي فك بعمله طلاسم قلبها، وجعلها لغـة محكية على شفاة كل منهما.

وفيما كانت ليوندا تهرول مسرعة إلـى حيـث لا تـدري.. تلتقـي زوجة مورينو.

الأم: ليوندا؟؟ ماذا بك؟؟؟

لا شيء، لا شيء.

الأم: لم أر مثل تلك الدموع من قبل.. ما بك يا ابنتي؟

ليوندا: سأبيع القادم من حياتي لأجل أبي، هذا كل شئ..

الأم: توقفي عن الاسترسال.. ماذا حدث؟

....وتروي لها ليوندا ما حدث.

لم تتوقف عن البكاء ولو للحظة واحدة..

وكأنه الإيقاع الذي تنشد عليه زوجة مورينو الحل المنشود.

الأم: اسمعي.. إليك الحل.

لطالما كنت يا ابنتي جوهرة أبيك.. وكان هذا بحكم الطبيعة.. أما الآن فعلى الجوهرة أن تختار صاحبها الجديد.. ونصيحتي لك هي ألا تختاري.

توقفت ليوندا برهة من الذهول.. ثم قالت:

لا أفهم ماذا يعني هذا !!

الأم: اجعلي المنافسة تدور بين العاشقين.. والرابح يظفر بك.. لا أخفيك سرا.. هكذا أصبحت أنا زوجة أهم تاجر في البلاد كلها.

وماذا كنت تظنين يا ليوندا !! زوجي كان من جزيرتكم.. وأنا كنت أعيش في الشمال الأقصى، وبني جنسي تصارعوا في شبابي كي ينالوا الزواج مني... فكيف بت لزوجي الحالي برأيك؟

ليوندا: لا أعرف و لا أستطيع... كيف أقحم أونج في كل هذا؟ هذه هي الحياة التي تطغى علي في كل مرة.. وفي كل مرة تكون الأنانية

هي الفزاعة التي تجعلني أنصاع.

أدرك أنه لا يملك سواي.. أدرك أنه سيهلك من دوني لا محالة.. فقط أريد عشقي تحت أي ظروف.

الأم: لا تحصلين دائما على ما تريدين ليوندا.. وتذكري أن في لحظات ما قلبك هو خصمك.. فلا تدعيه يهزمك أبدا وإلا تندمين طوال حياتك ...

بات الأمر أصعب.. ذهبت ليوندا لتَقسم الحِمْل الذي تحمل على اثنين.. وتخبر من تحبه بكل ما جرى.

فذهبت للأرض الجديدة مرة أخري.. لتجده في نفس الوقت والزمان ينتظر...

ما بك؟

ليوندا.. أخبرتك مرارا الكف عن تلك الطقوس في بداية الحديث.. لمحت خطوتك المرتابة.. وها أنا أنتظر أن أعرف ما بك أنتي...

هل علمت شيئا؟

أونج: لا فقط لأن لا أحد يبدأ حديثه بـ: «ما بك»...تعالي واجلسي بجانبي...

ليوندا: أريد أن أحدثك بأمر ما...

ماذا ليوندا...

تقدم مساعدنا السابق والذي أصبح سيدا نبيلا بفضل مدينتكم

لخطبتي وأبي وافق... فقد أغواه.. وهو يريد العودة للديار.

أونج: وما دخل هذا بنا؟

ليوندا: ألا تري له دخلا أونج؟

أونج: إطلاقا..

هذه حياة أبيك.. له مطلق الحرية فيها.

ليوندا: ها قد عدنا للخيال مرة أخري.. تعلم أن أبي ليس لديه سواي.. فكيف أصبحت حياتي غير حياته بهذه البساطة.. حتى إنني لم آتي إلى هنا الا في رحلة تجارية معه...

حسنا.. جيد

ليوندا: أهذا ردك أونج؟

نعم ولن أزيد...

يبدو أنك اعتدتي على دور البلورة الجالسة على الأقمشة الحريرية في انتظار من يزايد على ثمنها...

ليوندا: اصمت.. لن أطيق سماع المزيد منك.

أونج: وأنا لا أطيق أن أنافس أو أزايد على قلب ما... فأنا لا أشتري نعجة بل حبيبة.

أجشهت ليوندا بالبكاء، وجرت مسرعة مبتعدة عن أونج...

فجرى هو الآخر خلفها حتى أمسكها بين يديه،

وبعد عدة محاولات كاذبة منها بالإصرار على الابتعاد، أخذت في الهدوء مرة أخرى..

أونج: إن أصابك مكروه فلن أسامح نفسي أبدًا.

ليوندا: إذًا لماذا أسمعتني هذه الكلمات.

أونج: هذا الحجر الجامد الذي جعلك تبكين لا يملك من أمر نفسه شيئا.

تتركين أباك لأجل حبي.. ووطنك لوطن جديد ولغتك لأخرى جديدة..

وتتذكرين كل حياتك السابقة كأضغاث أحلام تراودك من حين لآخر...

ليوندا: أحببتك من كل قلبي أيها الإنسان.. كما لم تعشق أي فتاة من قبل.. أردت أن أكون معك للأبد.. دون المكان أو الزمان.. لم أفكر أين أعيش.. أو أي لغة أتحدث.. فقط أفكر في أنك مَنْ عوّضني به القدر عن ما فاتني في حياتي.

أونج: وإن للصيد وهو عملي ذهبت يومًا مع أبي.. وفي قاربي الخاص في المستقبل.. ولم يشأ القدر أن أعد.. فماذا سيكون مصيرك أنت؟ غريبة في وطن غريب؟ أم تعودين من حيث أتيت فتجدي نفسك في مكان لا تعرفينه، وتغير البشر فيه فأصبحت تنتمين إلى لا مكان..

لحبي شيم ليوندا.. رغم اعترافي أنني أدركها لأول مرة معك.. لكنني متيقن تمامًا أنني لست الأناني.. لن أكون من يضل الناس حتى يجد هو طريقه. أنا أعمل في البحر.. وأعلم أن معني التيه في البحر هو اللاعودة..

تبك ليوندا ويبك أونج.. ويتساوى ضعفهما معًا..

أونج وليوندا.. معا.. لمرة.. ولأول مرة.. لا يدركان متى اللقاء القادم.

كفي عن الارتعاش... ليوندا.. اهدئي... لا تجعليني أتصرف بحماقة مع أبيك...

لن أراك مجددا أونج..... لن آتي إليك مرة أخري.. هل ستأتي أنت إلي؟!!

دعك من التفكير الآن يا عشقي... اهدئي أرجوك، اهدئي.

ليوندا: أونج.. تعال أنت لي هناك... فقط أراك حتى ولو مع أخرى...

فقط أراك....

أونج: فقط فقط عند عودتك للديار عديني بشيء..

ليوندا: أي شيء يا من لم أعشق سواه.

أونج: أخبري القوارب القادمة من جزيرتكم أن أهل هذه البلاد يحبون الأزهار الحمراء الصغيرة أن تكون على مقدمة المراكب.. بل ويعاملون من يحملها ويجلبها بلطف ومودة.. مع كل زهرة منها سأراك.. لا تحرميني رؤياك أبدا ليوندا.. وسأخبر الجميع بأن هذه الزهور تنبت في الجزيرة المقابلة لنا... واسمها ليوندا.. لأجعل اسمك على شفاه كل أهل بلدتي.

أما أنا فستريني في كل بسمة تعيشيها في وطنك مع أبيك، ومع من يدعي حبك.. تذكري الشاب الذي صارع الأحقاد والأنانية على هذه

الأرض الجديدة وهزمهم.. فقط لأجلك أنتي.

ليوندا: أحبك للأبد.

أونج: أحبك للأبد.

أخذت ليوندا في الابتعاد عن أونج راكضة ببطء... تركض.. ولكن الطريق لا يريد أن يكون قصيرا.. وبصرها صار حادًّا فجأة؛ فظلت ترى أونج واضح الملامح مهما ابتعدت في ركضها هذا... وما هي ألا لحظات حتى ركضت إلى أونج مرة أخرى حتى وصلت إليه.. و ظن هو أنها تريد كلمة حب أخيره منه لتدوم إلى الأبد.

ليوندا: أنصت إليّ جيدا أونج... أنصت إلى تلك الكلمات ولا تناقشها، ولا تسألني عنها.... كينوسوس... شمال مدينة كينوسوس... تخطي مزارع الزيتون الكبيرة... ثم اتجه شمالا... لتصل لبيوت بنية اللون بجانب بعضها البعض... بيوت ما بعد حقول الزيتون... البحيرة الكبيرة.. إنها بركة كبيرة وليست بحيرة... غسيل الأواني بها.. نظرات الاحتقار.... سأكون هناك.

ثم ركضت مسرعة مبتعدة عن أونج وهذه المرة دون أن تنظر خلفها.

سافرت ليوندا....

ولكن على قارب أفخم من الذي أتت عليه.. لم تكن في بادئ الأمر سعيدة.. بمجيئها.. كان القدر ألا تكون سعيدة في العودة أيضا... فالحب.. قد يجعل البعض سعداء دون البعض الآخر.. كانت صامتة على أي حال... ولم يدرك أحد سبب صمتها سابقا.. ولا

سبب صمتها بعد رحلتها إلى أرض حبها الوحيد.. فاروس الأرض الجديدة..

وتمر أيام ليست بكثيرة على الإطلاق.. ولا يزال أونج يصلح الشبَاك مع أبيه

ناد: أرهِقَك في العمل هذه الأيام.

أونج: لا عليك يا أبي فأنا أحب عملي..

ناد: لم أر ولدا غريبا مثلك يا بني.. كغرابة الزهور الحمراء التي انتشرت في المدينة فجأة.. حتى باتت رائحة المدينة كلها كزجاجة عطر.. وحتى اسمها.. لعل الرجل الذي شاركني على القارب سمى ابنته تيمنا بتلك الزهور ..

أونج: لا عليك يا أبي لا عليك... لا تلقي بالا..

ناد: تستحق إجازة بما ادخرته من مال حتى الآن يا أونج...

شكرا يا أبي.. ولكنني أحتاج إلى أن أنهي عملي أولا.. فسوف أحتاج للأجازة أكثر مما ادخرته حتى الآن.

ناد: لكن إن أعطيتك إجازة فأين ستذهب يا أونج؟

أونج: إلى أول جزيرة مقابلة لساحلنا يا أبي..... إلى البيوت البنية اللون

****

الفصل الثالث.. أبداً لم تنتهي المسألة

كانت الفترة التي قضاها أونج بعد رحيلها عنه يعمل لجمع المال تقدر بثلاثة أشهر، هي حقا لجمع المال، ولجمع أشياء أخرى مثل الهمة والشجاعة، كي تجابه قومًا ما في وطنهم وأنت وحيد لا تريدك سوى فتاة منهم، لم يكن قلقا من إجبارها على الزواج في تلك الفترة، أسباب عديدة جعلته يفكر بهذا المنطق، كثرة الاستعدادات للزواج لدى الإغريق، قوة ليوندا في وطنها قد تؤخر الزواج بوسائل رفض مختلفة، الزهور الحمراء التي لا تزال تصل من حين لآخر، وإن كانت قد بدأت تتباطئ وهذا هو السبب في التعجيل بالرحلة لليوندا.

جمع شمل عزائمه وانطلق، قال لأبيه إنه سوف يختبر حظه في مكان آخر للاعتماد على نفسه، قالها بالمصرية القديمة، وهي تتكون من عدة كلمات إذا نطقها الشاب يكون كالفرس الذي يستأذن خلع لجامه، وهي لا إجابة لها سوى الموافقة..

لم تحدث أشياء تُذكر خلال رحلته لليوندا، وحتى وصل إلى حيث تعيش، ربما رأى ألا يوجد ما يذكره سوى أنه نجح في الوصول إلى حيث تعيش.

نجح واتبع التعليمات حرفيًّا، كيفتو... ثم كينوسوس.. شمالها.. حقول الزيتون... تخطيها.. هناك بركة ماء توصف بأنها بحيرة... بيوت بنية اللون

هناك فتيات ونساء كثر، جميعهن خارج البيوت يغسلن ويطعمن دواجنهن... وأشياء من هذا القبيل، لا وجود للرجال سوى بعض

الأطفال العالقين بثياب أمهاتهم، قرية صيادين ورجالهم في البحر.

اخذ يمعن النظر، يترقب ظهورها بين حين وآخر، تساوره بعض الوساوس في أنها قد رحلت عن المكان لذلك لا يراها، وإذا أطال أحدهم النظر إليه أظهر شباكه التي يحترف إصلاحها، فيبدو وكأنه جاء للعمل.

البيوت بنية اللون كثيرة، والبركة التي يسمونها بحيرة واحدة فقط، مرت قرابة الثلاثة ساعات وهو ينتظر ويبحث بعينه ويصلح شباكه ثم يفسدها، ثم يصلحها مرة أخرى للتمويه، كانت الشمس عمودية، أكثر أوقات النهار حرا، الأنسب للنزول للبركة، فبرودة الجزيرة ليلا لن تجعل أحدا يلامس الماء.

بدأت الفتيات في التجمع عند البحيرة، وما إن اقترب حتى بدأت المنافسة على من ترمقه بنظرات الاحتقار، كانت نظرات مبالغ فيها إلى حد كبير، أقرب للأداء المصطنع أو التمثيل، وكأنهن يتنافسن فيما بينهن على صاحبة النظرة الأكثر أثرا، فلم يبدي تأثرا، حتى أن طفلة قد جاءت ورمقته بنفس النظرات ولكن بصورة مضحكة وهي تحاول تقليد الفتيات الأكبر منها سنا، أراد أونج إنهاء تلك الحالة السخيفة، فرفع الشباك في يده واستخدم كلمة واحدة فقط وحرف جر مع اسم ليوندا، مناديا بينما يرفع الشباك في يده للدلالة على أنها محل الحديث، لـ بيت ليوندا ! ثم خفض الشباك وحركها أمام صدره وكرر نفس الجملة، هو يتقن لغتهم، لكن مظهر الأجنبي وعلاقة العمل تلك تجعل المساعدة أقرب له، حتى إن الفتيات نسين نظرات الاحتقار

وأخذن في الإشارة إلى بيت يلي البيوت البنية ويعتبر آخرها، بيت خلف البيوت لذلك لا يرى.

توجه بينما قلبه يكاد يمزق صدره من القفز، قفز وليس نبض أو تحرك، حتى إنه خشي أن يموت قبل أن يراها وهو لا يفصله عنها سوى خطوات.

اقترب فوجدها تنظف أمام منزلها وأمام المنزل بعض الخضرة، رمي الشباك أرضا وصاح بهَاءٍ تعقبها أكثر من أَلِف، فنظرت وقبل أن تستوعب الموقف تحرك راكضا نحوها ثم غير اتجاهه نحو صخرة صغيرة بجانبها، حملها، أخذ يحتضن الصخرة بشراسة وعنف حتى فتتها بين ذراعيه، ثم استدار وحمل ليوندا، وركض خلف البيوت في عمق الخضرة غير المزروعة حتى بالزيتون

وما إن وضعها أرضا وهدأت ضحكاتهما قليلا.. قليلا جدا... لدرجة أنه لا يكفي.

أونج: كان المفترض أن عناق تلك الصخرة لك، لم أكد أصل إليك حتى أفتتك بهذه الصورة، في بعض الأحيان يكون الحب مدمرا، مسكينة تلك الصخرة، ولكن هذا جزاء من يقف في طريق وصولي أنا إليك، فقد تخيلتها عائق بيننا أيضا

كانت ليوندا من شدة فرحتها تمسح بأيديها عرق جبينه بينما تبتسم وكأن ملامح وجهها قد أصابها الشلل على وضعية الابتسام المتفاجئ.

أونج بعد أن استرد القليل من وعيه

أين أباك؟

ليو: في مكان ما في البحر.

أونج، عندما كنت في منزلكم رأيت قاربًا، لمن هذا؟

ليو، قاربنا، أبي يعمل على قوارب أخرى الآن حتى إن الرجل الذي أراد الزواج بي وعده بأنه إذا تزوجني سوف يشتري له آخر، ولكن لا قوارب قبل الزواج... أما القارب الذي رأيته فهو لا يصلح للإبحار لمسافات بعيده، خشبه ذو طبيعة لينة.

أونج، سوف نرحل ونتزوج في أرض أخرى يا ليو، انتهت كل هذه الترهات التي بلا معني، من أراد أن يستخدم أباك فليستخدمه كصياد، وليس كصياد لديه ابنة يريد الوصول إليها.

ليو، حسنا، حسنا، أنا لا أحلم الآن، أنت بين يدي، جئت إلى هنا لتأخذني، لا زواج من مساعد أبي..

أونج !! كيف سوف نعود لجزيرتك ذات الامتداد اليابس مرة أخري؟ محتمل أن يأتي أبي ومساعده ويكون الموقف لا يحتمل؟

أونج: لن نذهب لجزيرتي يا ليوندا، بل إلى جزيرة أخرى شرق منتصف الطريق بيننا وبينكم، جزيرة بها أزهار لونها كلون زهرة البرتقال.

ليوندا: سوف تترك وطنك الذي أحببته أكثر من نفسك لأجلي يا أونج ! أحبي لك يجعلك تكون المغترب الخاسر ؟!

أونج: ليوندا، أنا صياد وابن صياد، وقريبا جزيرتي الصغيرة

سوف تصبح جزءاً من مدينة كبيرة حاملة لاسم الإسكندر، ويصبح الصيادون هم الأدنى فيها، فلا نحن فرسانًا، ولا صانعي طعام ولا معلمين، وإن كنت اتجهت جنوبا لبلدي العليا لواجهت نفس الظروف وأشد منافسة..

مكان جديد يحقق لنا العدالة، فلا أكون هجرت وطني إلى وطنك، ولا أنت هجرتي وطنك إلى وطني.. وآباؤنا لن نراهم مجددا إلا بعد سنوات، نراهم بأبنائنا الصغار.. فلا ينزعنا أحد من بعضنا البعض..

هذا وإن المكان الذي أحدثك عنه يرتبط من تحت البحر بذات الشجرة الخاصة بالجزر المتناثرة ما بين الشمال والجنوب، ولا يكون الإنسان مهاجرا إذا ما تنقل بين مدينتين داخل وطنه الواحد، وتلك الجزر كلها وطني، عار علينا نحن سكان الجزر، بعد أن كنا ننتمي لقارة أن يصعب علينا إيجاد مدينة ما بها لمجرد أنها ابتلت بعض الشيء بالماء !

ليوندا: احملني أينما تشاء، وضعني أينما تشاء، الآن، والآن فقط، وفي لحظات انتصارك بوصولك إلى هنا، أصبحت أدرك أنني الأقل علما بما حولي، أقل ما أساعدك به هو الاقتناع بما لا أفهمه، أو أدركه بشكل كامل، حتى لا ننتظر إدراكي للأمور، وهو ما قد لا يأتي.

قررا أخذ القارب ووضعه في مياه الشاطئ، وكلفا الطفلة الصغيرة التي كانت تستمتع برمق أونج بنظرات الاحتقار بالبقاء في حديقة بيت ليوندا حتى عودة أبيها، يسعد الأطفال كثيرا إذا ما طلب منهم

الأكبر سنا خدمة ما، وكأنما تلك شهادة من الكبار تعترف بأن الطفل أصبح ناضجا، وكلفاها بنقل رسالة للشيخ والد ليوندا،

أونج المصري جاء واصطحب ليوندا معه وسوف يسافران، وأخذا القارب ليس سرقة، وإنما لتكلفة الأوقات العصيبة التي مر بها الاثنين منذ رحلة مصر وحتى اليوم، وهما ينتظرانك في القارب الراسي في الشاطئ المقابل لأشجار الكرز.

لم يتمالك الرجل نفسه فجاء بمساعده حاملي عصيان خشبية وراكضين للشاطئ لمنع سفر العاشقين بأي وسيلة، كان الشيخ ومساعده يظنان القارب ملاصقًا للشاطئ، ولكن ما إن وصلا حتى وجدا القارب أبحر مسافة أمتار داخل البحر بحيث يستحيل الوصول إليه، فنادى أونج وليوندا الشيخ من على متن القارب..

يصيح أونج بسخرية: من يحمل عصا عند وداع المسافرين؟

ليوندا، الوداع يا أبي... سوف تظل أبي..

أونج: لم اسرق ابنتك منك، أنا أيضا تركت وطني وأبي، حتى لا أجعلك تبيعها لهذا الحقير.

لم يكن تأثير الموقف عاطفيا مستساغ، إما أن يطيعا الأوامر، ويفنى أونج ضربا بالعصي، وتباع ليوندا لذاك الرجل، أو يهربا إلى حين، وكلمة إلى حين تعطي نوعا من المواءمة بين تناقض المشاعر الذي كانا يغرقان فيه، ولا تستطيع ليوندا الحزن حتى إن أرادت، لأن بجوارها من ترك أباه ووطنه الذي لا تنطبق روعته على مكان سواه فقط لأجلها.

الفصل الرابع: الضيف مضيفا.. والمضيف ضيفا

مرت أيام في البحر، ربما يومان، سرعة الرياح لم تكن عادية بل شديدة جدا، ولكنها في الاتجاه المطلوب، استيقظا من شبه غفوة على صوت القارب يصطدم بأرض الجزيرة ذات الزهور بنفس لون البرتقال، لم يكونا يعرفان لها اسما، ولم يكن عليها سوى بعض الشخوص من قدامى الصيادين وزوجاتهم، تشابهت أو لم تتشابه ظروفهم مع أونج وليوندا، ولكن لم يكن هناك أطفال ولا أناس في مقتبل العمر، وكأن وصول أونج وليوندا كان المطر المنذر بخيرات على جزيرة، بدءا أولى خطوات الحياة على الأرض الجديدة، شيوخ الصيادين السابقين وزوجاتهم المسنات لعبن الأب والأم لأونج وليوندا، كان معنى الوصول لتلك الأرض من أي مخلوق كان، إنه أراد فصل الماضي عن الحاضر، إنه أخفق في أرضه الأولي فأراد الأرض الثانية، فليجعل الثانية بجمال وبهجة تنسيان المهاجر من أين جاء.

أما عقيدة أونج القديمة التي ترى بأن جميع الجزر في هذا النطاق والحيز الجغرافي هي أرض واحدة، وكانت قارة عظيمة فيما مضي، يجعله يشعر بأن الانتقال بين مدينتين في وطن واحد لا يستحق الشعور بالاغتراب.

مرت أيام عديدة، بل سنوات، لم ينقطع اتصال أونج في البحر مع الصيادين المصريين، بل كان يتعمد الوصول لنقاط بعيدة جدا عن جزيرته؛ حتى يحاكي بني وطنه الأول، ويعرف منهم ما يحدث، وكأنه لم يفارق مكان مولده..

في البداية كان يستمع منهم لأخبار بناء مدينة الإسكندر، يحدثه صياد ابن صياد عن هذا الإنجاز بفخر واعتزاز؛ وكأنه هو صاحب الفكرة، أو من يبني مدينة الأحلام تلك بيديه !

ولا يفوت أونج فرصة التركيز على تضاؤل مكانة الصيد والصيادين إذا ما أنشئت تلك المدينة واتصلت باليابس، ويتفادى الدخول في مناقشة أن الجزيرة تحتاج لليابس كي يعزز قوتها ويمنع محاصرة الماء لها من جميع الجوانب..

دائما ما تكون المبررات العلمية والمنطقية لبناء مدينة الإسكندر هي نهاية النقاش بالنسبة لأونج، فيجمع شباكه ويرحل، ما إن يتطرق الحديث لهذه الحجج، لأنها تمس عقيدته في أن الجزيرة لا تتصل باليابس؛ وإلا فقدت رونقها، كما أنها تمس عقيدته في الرحيل عن مكان مولده، وتفتح لعقله -الذي لا يتوقف عن التفكر أصلا- فكرة تقييم قراره الذي اتخذه قبل سنوات، وكون أسرة بناء عليه.

****

ذات صباح يجلس فيه المهاجران مع ثالث أبنائهم، في يوم راحة، وبلا عمل يناقشان مدى روعة العيش يوما بيوم دون التفكر فيما يخبئه المستقبل، وإن هذا النمط من الحياة هو سُنة باقي المخلوقات، وعلى الإنسان أن يخضع لذات القانون طالما أنه يقر ويعترف بأنه مخلوق مثلهم!

وفي لحظة تمهيدية لما هو مستقبليٌّ حقًّا، تأتي سيدة عجوز تصيح وتجري وتخبر في كل صيحة

أتي قارب من الأحواض الجنوبية.. أتي قارب من الأحواض الجنوبية..

تعجب المهاجران من الخبر، فإحدى سمات جزيرتهم أنها بلا زائرين، إلا التائهين في البحر، وغالبا يصلون وقد انتهوا داخل قواربهم التي تتحطم فور اصطدامها بصخور الجزيرة.

نظر المهاجران لبعضهما، ولكن ظل مستوى الاندهاش في المعدل المقبول حتى سمع أونج العجوز تقول: قارب المصريين. فلم تكن سوى نظرة واحدة لزوجته ثم ركض أسرع من الخيل في بعض الأقوال!

الركض ليس للإنقاذ؛ لأن القارب ومن به سالمين، والركض ليس للفضول؛ لأن الجزيرة تكره الزائرين، الركض كان لأن أونج لما يخلع عباءة المصريين، فالقارب مصري ومن عليه مصريون، ها قد أتت مصر إليه بدلًا من أن يذهب هو إليها. الركض يكون لتلقي منح وهداية الأقدار بسرور وفرحة عظيمة.

وصل قارب متهالك المتن والركاب، يتحدث من به بجملة واحدة، ثم يدخلون إلى الجزيرة، يحملون أطفالهم وبقايا طعامهم المتبقي، وما حملته أيديهم، ويدخلون كبقايا جيش مستسلم، أو فار من معركة.. اقترب أونج وليوندا وهم يشاهدان هذا المشهد فاستمعا للجملة التي يرددونها كأنها وثيقة العبور والدخول للجزيرة، جملة واحدة موحدة، غرقت هركليون! !

نظرت ليوندا لأونج نظرة الإنسان العادي لمن يمتلك بعضا من الحكمة، وكان الزمان يفسح المجال لكلمات جديدة لا بد وأن تقال،

هركليون كانت أشعة من النور أبت الشمس أن تنسبها إليها بإمداد، هركليون طائر غرد خارج السرب فتبرأ السرب منه وتنكر له، هركليون كانت قلبًا، تعجبنا من حياته كثيرا وهو بلا شريان، هركليون هي الصورة التي يعمل صانعي مدينة الإسكندر على ألا تكون توأمها..

يقصدون.. غرقت بقايا هركليون، والذين عاشوا يرونها هركليون كلها، لم ينقص منها شيء.. ويجبرهم خوفهم على عدم الاعتراف بأنهم يعيشون على بقايا ما تبقي من هركليون القديمة التي كانت أرخبيل بشري بامتياز.. يحمل الطابع البشري بخطاياه كلها، وبالكتمان أضحي الجيل الأول الساكن لها شريكا لما حدث لآخر جيل سكن هركليون؛ لأنه كان يخفي أن هذا الحلم البحري سوف يتم الاستيقاظ منه عاجلا أو آجلا، وهم من تلك اليقظة موقنون.

وترجل رجل من القارب يبدو عليه مظهر من ينتمي لقرون قد خلت، يرفع سبابته إلى السماء، وينشد بالمصرية الدارجة أنشودة كانت آخر ما قال قبل أن يسقط وقلبه قد توقف تماما..

يا هركليون يا أولي الغارقين، لم يكن بك بركان يعوضك عما أخذه البحر من رمالك، بركان يحمي بحممه ولهيبه المسيرة والصيرورة، كنتي للمرفهين وطنا، ومرفهيك لا يصدون الموج العاتي.

يا هركليون جعلْت لاجئيكي رافضين للجذر، يسلكون البحار، هاربين متنزهين ليروا ما لم يروه من قبل، مرفّهين حتى وهم يغرقون.

يا هركليون يا أولي المحاولات، كنت الحلم الباكر الذي من بكورته لم يدركه الحالمون.

****

تقبل السكان الجزيرة بالإجماع اللاجئون، فكان في ذلك العهد محرم على بني البشر الإتجار ببعضهم البعض، على الأقل في ذلك النطاق الجغرافي

استمر نزول اللاجئين من القارب، وكانت من بينهم سيدة يعرفها المهاجران خير المعرفة، وهي ذات أيادي بيضاء على المهاجرين قديما، روما ابنة كبير التجار الأجانب، تحمل بين يديها طفلًا صغيرًا.

نظرت روما فرأت أونج وليوندا الأصدقاء القدامى وأبطال قصة الحب الأشهر في حياتها، ابتسمت ثم ضحكت ثم دخلت في نوبة بكاء تحمل خلالها طفلها للأعلي وتصرخ: هذا كل ما بقي، كررتها مرة أخرى ثم سقطت على الأرض مغشيا عليها ومعها طفلها المنهك بقدر أمه..

فحمل الزوجان روما ووليدها للمنزل، عناية مركزة حتى الليل، حتى ذهبت الحمى، وعاد الحليب.

روما: اقتديت بك يا ليوندا، أحببتي رجلا ورحلتي معه، والدك والشخص الذي رفضتي الزواج به أتيا للبحث عنك، وأكثرا من الخوض في سمعتك، ولكنهما رحلا دون جدوى، اقتديت بك ورفضت الزواج من صديق والدي، وهربت مع زوجي الذي كان يعمل في هركليون، وأنجبنا ابننا الصغير هذا هناك، كنت أنظر كل يوم للبحر

من النافذة، حتى جاء اليوم الذي وجدت البحر فيه يدخل من النافذة، دمرت المعابد والأبنية واختفت الشوارع والطرقات واختفت معالم الطريق ومعالم مدينتنا.

ماذا بعد يا ليوندا، أكانت حياتي منذ بعد رحيلك بقليل حلما أم ماذا؟! أخبريني وأرشديني كما كنت أخبرك وأرشدك وأنت زائرتنا، ما هي الاختيارات الآن.. تيه أم تيه، أيهما علي أن أختار، أبتلع البحر السنوات التي مضت والآن ألتقي بك كما التقيتك أول مرة، ولكنك أصبحتي صاحبة الدار، وأنا الضيفة الزائرة الغريبة، أخبريني ليوندا ماذا بعد؟ هل سوف يلحق بي الموج القاسي إلى هنا! كي يأخذ صغيري مثلما ابتلع أباه ! حتى وإن شفيت وعدت إلى عافيتي فلن أمسح بالماء على وجهي أو وجه طفلي مجددا، الماء الذي ابتلع أباه.

لم أر زوجي، ابتلع البحر كل شيء، أصبح منتصف المدينة المزدحم بالمارة لا وجود له، وأما ما تبقي من اليابسة فأخذنا قواربنا منه، ولا نعلم عنه شيئا، ربما بات بيئة مناسبة للأسماك التي تحتاج أن تعيش في البرك والمياه الضحلة أكثر.

الحدائق و الأسوار، معابد آمون الذي لم أكن أعبده بعكس زوجي، أشجارنا التي ارتويت بالملح من ماء البحر، اختفت الأرض ومن عليها من البشر، لم يدرك الناس ما هذا، حتى إن رجلًا من سكان المدينة ظل ينظر للأمواج القادمة نحوه وهو لا يدري ما سوف تفعله به، ظن أنه قد يبتل بعض الشيء، فيغير رداءه بآخر، فقط... فقط...فقط..

بعد هذا الانفعال دخلت روما في حالة إعياء شديد، ولكن الجانب المطَمْئن هي أن الحمى قد زالت، هذا إرهاق أغلبه يتعلق بالجانب النفسي، فحملت ليوندا الطفل، وجهزت له مكان للمبيت إلى جانب والدته

****

كان أونج سارحًا في البحر الذي لم يحدد موقفه منذ بدأ الخلق، صديق أم عدو، تارة يعطي الحياة والطعام والنسيم واللؤلؤ، وتارة يأخذ حتى الإنسان نفسه! بات يغتبط الطيور التي وإن نزل على أغصان تسكنها مطر، حلقت لأغصان أخرى أكثر جفافا، وحتي إن ابتلع طوفان ما الأشجار، تحلق لبلاد بعيدة، وتترك تحتها إنسان ظن نفسه الأقوى.. يغرق..

في هذه الأثناء كانت روما تسترد عافيتها شيئا فشيئا، ومع عودتها بات لديها مخزون من الأسئلة مع إسهاب، وكانت ليوندا في دور الرفيقة حقا وصدقا، لديها إسهاب في الإجابة أيضا، حتى باتت ليوندا تجيب على ما لا تعرف، حتى جاء اليوم التي عادت ليوندا لزوجها وهي تحمل العديد من التساؤلات التي يجب أن تلقيها كي لا يفيض الكيل..

وفي منزلهما ليلا..

ليوندا: قضيت النهار أهدئ من روعها.

أونج: حسنًا فعلت.

ليوندا: قلت لها ألا تقلق؛ لأن ما حدث لن يتكرر مجددا..

أونج: وكيف عرفتي بذلك !

ليوندا، بنبرة يسمعها أونج لأول مرة، مع تعبيرات وجه تبدو أنها قد استعارتها من شخص آخر إلا أن يكون من نفسها: كيف تسألني هذا السؤال أونج، بالطبع كان هذا عقاب الآلهة، لأن بني البشر شرعوا في بناء الجزر وانتهاك حرمة البحر، فالجزر يصنعها الآلهة لا البشر، أعلم أننا على مدار السنوات الماضية كنا على عجلة من أمرنا في كل شيء، ولم نتطرق لتلك الأشياء، ولكن أريد أن أعلم عن آلهتك وأن تعلم عن آلهتي، يجب أن نأمن غضبهم حيث إننا نعيش في البحر..

لم تكن الذاكرة تسعف أونج سوى ببعض صور ذكريات الطفولة عن أمه وهي تتركه هو وأباه نظرا لاختلاف المعتقد، ولم يشعر أونج بنفسه إلا ويده معلقة في الهواء تنتظر أن تصفع وجه ليوندا، ولكن أي وجه سيكون قد صفع حقا، وجه ليوندا التي تتحدث بما لا تعرفه أم وجه والدته التي تركته وأباه قبل فطام أونج لاختلاف المعتقدات والعبادات بينها وبين والده، أم يكمل الصفعة فيكون صفع الماضي والحاضر في آن واحد؟!!

حسنا، فلم يكن الموضوع فقط اختلاف معتقد بين والدة أونج وأبيه، ولكن تلك السيدة أحبت جارًا لها يسكن بالجوار، تعرفت عليه أثناء غياب والد أونج لأيام يعمل في البحر، وقررت الهروب معه، ولم يكن هناك حجة مقبولة تنشرها بين جيرانها سوى أنها لم تعد تدين بمعتقد والد أونج، فبدلا من أن تكون خائنة، تكون محل جدل، وهو

الأخف وطأة؛ خاصة أنها تعلم أن بتلك الذريعة سوف ينقسم الناس بين مؤيد ومعارض، بدلًا من اجتماعهم على وصفها كخائنة!!

اتسعت حدقة عين ليوندا بندم عما قالته، ويأس من تغيير نتيجته، استمر الموقف لحظات قبل أن يحتضنا بعضهما البعض بسيل منهمر من الاعتذارات.

ليوندا: سامحني زوجي، خائفة.. خائفة تطمئن خائفين

أونج: دعينا لا نتحدث حبيبتي.. الحديث آفة البشر..

****

بدء الجمع يعتاد بعضه البعض، وكان أونج ينتظر هذا، ينتظر مفتاح الحياة الذي قد أتي من أرض الحياة التي ينتمي هو إليها، مفتاح يلقي به ركاب القارب المصري الذي وصل للجزيرة ألا وهو قرارهم بالبقاء دون المغادرة، فيقيس أونج موقفهم هذا على موقفه الأقدم زمنيا فيشعر بالرضا، وبأشياء عديدة أخرى لا مسمي لها، الاحتياج الأزلي لمن تفلسف لمنطق وبرهان عقلي ليثبت فلسفته؛ كي لا تبقى مجرد طرح للأفكار، حتى أتى أونج رجل جعلته الظروف متحدث باسم ركاب القارب وإن كان في هركليون لم يتعدى إحدى الوظائف الدنيا.

الرجل: سيدي أونج، قررنا نحن ركاب القارب البقاء في جزيرتكم الموقرة، لن نغادر لمكان آخر، إن سمحتم لنا أن نشارككم جهد زرع الثمر وجنيه معا.

لا يوجد هذا القدر من الزراعة في الجزيرة، وإنما هو تعبير مصري استخدمه هذا المفوه لوضع ركاب القارب المصري في مكانة تتساوي وسكان الجزيرة، لا أعلى ولا أدنى.

أونج.. بالطبع هذا السرور لنا، أن تقبلوا أنتم البقاء، ولكن هذه الجزيرة وطننا هويته يلزمها الزواج، وأرى بكم من فقد الزوج والزوجة، تزوجوا منا إن أردتم هويتنا، تحدثوا مثلنا، ننطق حروفًا لم يعتد لسان الإغريق نطقها، ويبرع بها المصريون، وندخل في الكلمات درجات من المد لا يعلمها لسان المصريين، المؤنث ينتهي بمد بصوت الألف،

والمذكر دائما سين، والعديد من الكلمات والصفات المخلطة بين ذلك وذاك سوف تعلموها مع الوقت..

والأهم من كل هذا ألا تفكروا في مغادرتنا إلى أي مكان آخر، حتى وإن لم تريدوا الزواج أو تحدث بلغتنا !!

****

بدأ الأطفال يكبرون ويتساءلون، عن معظم الأشياء، ويجيبهم جميع من يكبرهم بطلاقة تختلف باختلاف صاحب الإجابة، عدا سؤال واحد، لما تصغر مساحة جزيرتنا كل عام ! فبيوت الصيادين القدامى والتي كانت أمامها حدائق هي شاطئ الآن يهجم الموج ويفتت الرمل والصخر ويأخذهم معه، ثم يعود ليَلْتهم شطيرته من جديد.

وعلى الرغم من ذلك من المستحيل معرفة متى تحديدًا سوف يبتلع النهم شطيرته بالكامل، فالشمس لهيب يحترق ويأكل نفسه، ولكن من المحال معرفة متى سوف يخمد الحريق وينطفئ المصباح !

الصيرورة مؤقتة، والنهاية محتمة، ولا يعرف وقتها، أصعب معادلات الوجود والكون والبشر مطلقًا.

ولكن في مثل تلك الظروف يكون كتمان الخبرة والتجربة مشابه للخيانة العظمي، تحكم بالفناء على الأجيال القادمة، فالتحذير أصبح واجبا، ولكن من يتحمل أن يخبر العوام بمثل هذا، تردد العالمين وعلى رأسهم أونج بالمصارحة أو المكاشفة، فهي مغامرة غير محسوبة، كانوا

يرجئونها لوقت ما، لا يعلمون تحديدا، فظل العهد بالكتمان سائدا إلى أن جاء الجزيرة قارب آخر بقصة أخرى مغايرة..

قارب عليه رجل وامرأة يعتقد أنها زوجته يلبسان رداء أبيض تميزه الأعين، رداء سكان منطقة لم يعرفها أهل الجزيرة من قبل، مع الكثير من المتغيرات الجسمانية والطول المفرط، ينظران إلى الجزيرة بنظرة اللهفة والنجدة والغوث، ولكنهما ما يلبثان أن ينظران وراءهما كثيرًا، كم كانت تلك الخصلة عجيبة في هذين الشخصين، وعندما دخلا الجزيرة واستقبلهما من كان حاضرا، وضع الرجل يده عند منتصف صدره وهو يمد رأسه في اتجاه زوجته -وهي إشارة-: ألم أقل لك إنني على حق، ولكن ترجمة الإشارة ليست يقينية، والفجوة اللغوية بين الرجل وزوجته وأهل الجزيرة أوسع من أن يتم تداركها.

كان سكان الجزيرة يطبقون مبدأ الخصوصية تطبيقا فطريًّا تلقائيًّا وكأنه نظام لا شعوري خاص بهم، وهذا له ما يبرره، هذا هو أسلوب الحياة الأمثل بالنسبة لهم؛ نظرا لعدم وجود إمكانية للابتعاد بحيث يختفي الآخرون عن الأنظار، صحيح أن الواقفين على طرفي الجزيرة محال أن يرو بعضهم البعض، إلا أن الوسط مزدحم والأطراف ليست آمنة من الأمواج إلا في الجوانب ذات الصخور العالية.

ولكن آن الأوان لهذه الخصوصية أن تتغير بعض الشيء، فقط دخل الرجل الآتي بصحبة زوجته وسط تمركز سكان الجزيرة، ويهتف بنداء كي يتجمع الناس حوله، ثم أشارت بأن يتبعوه، فاتبعه الناس إلى صخرة طينية وأخذ ينقش عليها ببوصة كان يحملها نقشا غريبا،

تفاوتت سرعة فهم البعض له، ومنهم من لم يدرك المغزى أصلا .

نقش الرجل دائرة مثل الجزيرة تحيطها سهام من كل جانب، ثم أشار بأصبعه أرضا، ثم ركض، ليبقى وحيدا !

ربما يوضح النقش هجوما أو غزوا خارجيا محتملا ، ولكن الأسهم نقشت فوق بعضها البعض، ولا يأتي أسطول أو جيش يقف جنوده فوق بعضهم البعض، ربما موج، بل هو الموج فعلا ؛ إذ وصل لارتفاع الجبال شاهقة العلو.

لم يعد الأمر يحتمل الكتمان، صعد أونج على متن التلة الكبرى في منتصف الجزيرة.

أونج: ما نقشه الغريب كان لأمواج، يخبرنا أن الأمواج آتية لا محالة، سوف نغرق وتغرق جزيرتنا !!

أصيب أونج في وجهه نتيجة للكم الهائل من الحجارة التي ألقيت عليه من المستمعين، من متعصبيهم تحديدا، وتلك الفئة المتعصبة هي كبار الصيادين الذي لن يتحملوا عناء البحث عن وطن لهم سوى وطنهم هذا، ثم ما لبث أونج أن قال، اتبعوا الكذوب حتى ينكشف كذبه؛ فقط أبقوا القوارب بجوار الصخر العالي.

وفي أثناء تلك الكلمات لم تختلف كمية الصخور الملقاة على وجهه، فصاح وتقريبا للمرة الأولي في حياته يصيح في وجه مثل تلك الجموع.

لما لا تلقوا صخوركم في البحر لتصنعوا شاطئًا يحميكم، بدلا من

السخرية من أكثركم علما.

لم تختلف كمية الصخور التي كانت لا تزال تلقى عليه لتنحيه من موقعه على التلة، من الواضح أن الإنسان إما أن يلقي الحجر أو أن يستمع، ومحال أن يقوم بالاثنين معًا.

****

الفصل السادس: حتى النبأ اليقين

مضت سنوات طوال على وصول أونج و زوجته لجزيرة البرتقال، ووصول آخرين لهم ظروف مشابهة، تغيرت لهجتهم أو لغتهم كثيرا، حتى بات من الصعب عليهم مثل باقي السكان التحدث بطلاقة إذا ما تعلق الأمر بلغاتهم ولهجاتهم الأصلية، فهي لغة يطبق عليها قواعد اللسانيات من حيث قياس درجة التغير بالابتعاد تدريجيًّا عن مصدر نشوء اللسان الأول، فما البال بأن المصدر مصدرين واللسان لسانين، نشأت رابطة تجعل من يفارقها يعيش الاغتراب، حتى وإن عاد لحيثما ولد.

حتى لون البشرة، أعطت الشمس هديتها لسكان تلك الجزيرة، خففت حدتها على من شبع منها من القادمين جنوبا، وزادت عطيتها على من كان محرومًا منها من مهاجري الشمال، فأكسبته طليتها بكسوة حريرية من خيوط الذهب.

وفي يوم لا يعرف تاريخه -لأن الجزيرة ليس لها تقويم- خرجت ثلاثة قوارب صيد لجلب أكبر كمية من الأسماك قبل موسم العواصف، موسم تعلمه الجزيرة جيدا، وتخشاه جيدا جدا، كان قائد المركب الثالث يلقب بالكسلان، رجل من الصيادين القدامى يمتهن الصيد فقط حتى لا يظل بلا عمل، استيقظ متأخرا في ذلك اليوم فوجد أن القاربين الآخرين قد سبقوه، فلحق بهم متأخرا قرابة الثلاثة ساعات إلى مكان الثبات، الذي ترسو عليه القوارب أثناء الصيد، وفي طريقه

صادف قطعًا من الأخشاب تطفو فوق سطح البحر، استمر في تكذيب نفسه قرابة نصف ساعة، ثم عاد مسرعا للجزيرة يزف إليهم نبأ ضياع القاربين بصياديهم، ليس غرق، بل ما هو اشد من الغرق، لأن حطام القارب دليل أن الرياح كانت قوية لدرجة فقدان الصياد التحكم بقاربه واصطدامه بصخر البحر.

ولا حاجة لذكر أن هذا الصخر كان في الماضي جزرًا صغيرة جميلة تزين زرقة البحر.

****

فور أن أخبر الكسلان بالحق، صاح أونج:

الكسلان ينبئكم برياح عاتية معها موج أشد، تحصنوا بقواربكم.

ولكن هذه المرة كان المشهد مختلفا.

فأونج ولويندا وروما والكسلان وأبنائهم يهرولون من شدة قذفات الحجارة عليهم من قبل صيادي الجزيرة القدامى، والذي كانوا ينعتوهم بالغرباء، غرباء حتى بعد كل تلك السنوات!!!

والصيادون القدامى يهرولون وراءهم حتى يختفوا عن الأنظار.

ووراء جمع الصيادين جمع آخر، آمن بما قاله أونج والكسلان والرجل ذو الرداء الأبيض الذي جاء مع زوجته لجزيرتهم، فقرر هذا الجمع التحصن في القوارب فعلا.

****

استمر الوضع على هذا الحال ثلاثة أسابيع، حتى جاءت ليلة لم

تظهر فيها نجوم في السماء وكأن المادة المظلمة في الكون هي التي تسود، صوت البحر مرتفع كأنما يصرخ فيمن لا يسمعه، يراقب أونج الأمواج ويتذكر الجزء الخاص بأن الموج الذي يخشونه ليس موجا عاديا وإنما له صفات ومواصفات، فهو بحسب التصور البدائي للرجل الذي زار الجزيرة بقارب من زوجته، هو موجة فوق موجة فوق موجة، موج عالي جدًّا لا ينخفض حتى وإن وجد عوائق أمامه، تضرب على علوها، وتستمر وكأنها فارس يفتح الطريق لجيش قادم من بعده.

استمر مناخ الترقب قرابة اليومين، كانت هناك يابسات صخرية تحيط الجزيرة، مسطحات تسع من إحدى عشر إلى خمسة عشر شخص، يحيطها الماء من كل جانب، وهي ذات وظائف متعددة، مراكز للدفاع المتقدم تارة، مراكز للصيد تارة أخري، أما في تلك الظروف فاستخدموها مراكز للإنذار المبكر، حتى إن جاء منها التحذير خرج سكان الجزيرة في قواربهم قبل أن يصل الموج إليهم، أو على الأقل يستفيدون من فرق التوقيت هذا في تقليل الخسائر قدر المستطاع.

وفي أبعد تلك اليابسات عن الجزيرة كان هناك شابان يراقبان الأمواج وحركتها، فيحدث أحدهما الآخر..

الأول: بادئ الحديث، ما هذا الذي هناك؟

الثاني: أعتقد أنه سرب من الأسماك الكبيرة يتحرك مهاجرا.

الأول: حسنا، هو لنا، غذاء شهيا إن أخذنا منه، وتجارة لا كساد لها إن اصطدناه كله.

الثاني: لن نترك التلال، وواجبنا المقدس أمر لا يقبل النقاش،

استمر في المراقبة وقلل من حديثك.

الأول: يا باحث عن البطولة، إن عدنا لهم بهذا الكم من اللحم فسوف نكون الأخيار لا الأشرار.. اعقلها وسل بطنك، ألم يزعجك خوف رجال يكاد شاربهم أن يخترق من يقف بجوارهم من الإبحار والصيد بسبب الحديث عن هذا الموج المزعوم ! من لم يمت بالموج مات جوعا، اجعلنا ننقذهم بطعام إن كان هذا ما توفر لنكون فارسين.

الثاني: حسنا، وخاصة بأن الموج قد يأتي من اتجاه آخر غير ذلك الذي نراقبه، كما أن هناك يابسات بيننا وبين الجزيرة بها من ينبههم إن حدث شيء.

****

نعم كان سربًا من الأسماك الضخمة حقًّا، حيتان ودرافيل وأنواع أخري، ولكنها لا تسبح، وإنما تطير في الهواء، ولم تكن تهاجر، وإنما أجبرت أن تكون نافقة، تسبح في الجو كطيور النورس الذي هجرت المشهد ومحيط الجزيرة كليا، والموج وصل لعلو في الهواء بحيث تغير لونه بسبب دخول الهواء فيه بطريقة لم يعهدها أحد من قبل، أمواج فوق أمواج، ومن فوقها أمواج ومن تحتها أمواج، وخلفها أمواج أشد تدعم المسيرة، بينما الأمامية تفتح الطريق مهما كان صعبا، جيش من الماء يكتسح كل شيء، ويعرض أسراه من الأسماك الكبيرة والأشجار التي اقتلعها الإعصار المصاحب له كعلامة لما سوف يزيده من غضب على من يعترض الطريق...

وبالطبع انتهى الرجلان الطامحان بتجارة اللحوم البحرية خلال دقائق، ولم ينتبه باقي مراقبي اليابسات الأخريات لأن كل واحدة لا يكون لديها فرصة تحذير الأخرى، أما في الجزيرة فانتبه الشعب إلى هذا عندما تطايرت القوارب الراسية عند الميناء المواجه للاكتساح، وتطايرت الأغنام والجاموس الضخم والماعز فوق رءوس شعب الجزيرة، وأما مزروعاتهم فكانت كزهور الياسمين، اقتلعها الإعصار المتبوع بمياه البحر، موجات مد بلا جزر لتزينه ،بينما ينهي على الحضارة الإنسانية في تلك الجزيرة، وذلك في صمت؛ لأن صوت الرياح والموج جعل أهل الجزيرة لا يسمعون نداء استغاثات بعضهم البعض.

كان يغشي جو الجزيرة رذاذ ماء ناتج عن تشبع الهواء بماء البحر، فكانت كل قطرة تلمس جسد إنسان يعيش على هذه الجزيرة كأنها نيران تحرقه، وليست مياه.. نيران لكنها ليست كاوية بالحرارة، وإنما بالاغتراب الذي سوف يعيشه من لمسته بعد خروجه من وطنه، هؤلاء اللاجئين الذين سوف ينظرون ورائهم فلا يجدون سوى.. لا شيء !

وفي خضم الهروب الجماعي، حدث ظاهرة لم يعرفها بني الإنسان من قبل، تباطأت الخطوات، وكأنما يريد الفار الهارب أن يتلكأ حتى يواجه مصيره ويصادر على المطلوب برفضه أي مصير آخر. جعل من نفسه مساويا لأرض وطنه في الأهمية، إن غرقت يغرق معها، وإن طفت يطفو هو الآخر عليها كما كان سابق العهد.

إلا أن الأيادي تباعدت بعد أن تشابكت، ونظر من تقدمت خطاه

إلى من بقي تحت الأمواج المتسارعة بنظرة المستضعف إلى من تعاظمت وعظمت وخلدت قواه، فيكون الباقي جزء من أسطورة تحت الماء، أسطورة من رفض أن يقفز من قاربه الذي يغرق وفضل أن يغرق معه، لأن القارب، كان وطنا من طين لا خشب.

تفرقت الجموع في ركوب القوارب، تفرق الأزواج والأبناء والأخوة، هرع الناس للقوارب بلا نظر من يجلس بجوار من، ولم يدرك الناس هذا إلا بعد أن حملت الرياح كل قارب في اتجاه متباعد، يلوحون لبعضهم البعض وينادون بعشوائية لا مثيل لها.

أصبحت كل زوجه مع غير زوجها، وكل رجل مع غير زوجته، والأبناء والأطفال الصغار قسموا بالتساوي وبالصدفة دون أن يكون للنسب دخلا بهذا وإنما النسب الحقيقي كان حمولة القارب، وهل امتلأ؟ أم به مكان شاغر، كان شعب الجزيرة يتعامل وكأنه عائلة واحدة، فمن الصعب أن يتعلم أهمية صلات القرابة في تفضيل البشر بعضهم على بعض في لحظات غرقه.

كعادة الأمر، وطبائع الأمور ما دمنا وما داموا على البسيطة المسماة الأرض، الأكثر تفكرا وعلما يتحول للمنقذ، صحيح ليس منقذا لأرض تغرق أو مواطنين يلتجئون، ولكن لأجيال سوف تأتي وأطفال محمولين من غير أمهاتهم في الأغلب على قوارب هاربة ولا تعلم حتى إلى أين الواجهة، منقذ باقتراح كان آخر كلماته يجعل الأسطورة حية ونابضة وكأنه يوهب لها الحياة.

يصيح أونج من قاربه ويسمعه حوالي ثلاثون قاربا، يُسمعون ستين

قاربا آخرين لا يمكن لنداء أونج الوصول إليهم، صاح أونج:

استمعوا لي قبل أن تنفرط حلقات العقد فلا تتلاقي مجددا أبدا.

أخبروا أبناءكم عن جزيرتنا، زوروها أو ما تبقي منها، سوف تبقى منها تلال شامخات تخبرنا ومن بعدنا بأننا لم نكن نحلم، وبأننا لسنا جموعا أصابها الجنون بالتزامن، نحن من عاش الحلم وهو يقظ وعاش الحلم الأدنى جمالا وهو نائم، ألقوا على ما تبقي منها بكل نفيس لديكم، مثل مواطنينا الذين ألقوا بأجسادهم عليها، ألقوا عليها المال والذهب وما لديكم، وتلمسوها بأيديكم وأقدامكم، وأخبروا أبنائكم أن يتلمسوا ما بقي منها، تلمسوا ما بقي، تلمسوا ما بقي....

****

تفرقت القوارب، وتعددت المراسي، وتحول لاجئي الجزيرة لسفراء من الطراز الأول، يحدثون أهل بلاد المهجر عن حلم عاشوه على هيئة وطن، وبعد أن تفرقت الأسر، تلاقت من جديد أثناء رحلات القوارب لأطلال جزيرة البرتقال، الصخور المتبقية منها، فوجد الآباء أبناءهم ووجد الأزواج بعضهم البعض، قلة قليلة هي التي لم تتلاقى، هي التي لم تزر أطلال جزيرتها مرة أخرى، تفكر اللاجئين مليا في أن يبقي أحد ما مرابط بجانب تلك الصخور الباقية ليخبر الزائرين عن أسماء من تفرقوا، وأين مراسيهم ليكون التلاقي، ولكن علمهم الوطن بأن من يغيب لا يستحق الحياة التي أعطتها له تلك الجزيرة، لا يستحق

الزوجية والأبناء، ولا يستحق الأسرة التي عاشها في تلك الجزيـرة؛ لأن الحق الحق بأن هذا الشعب كان أسرة كبيرة، يربطهـا نـسب خـاص مـن نوع ما، لم تعرفه بقية الأمم حتى المجاورة منها.

****

فور أن أنهى الرجل الملقب بدكتور رامز أوراقه التي تحكي أسطورة شعبه وشعبهم، وشعب كثيرين لا أعرفهم، أزرفت دموع الرجال والنساء على حد سواء، على وطن غارق وطاف، لصخر يحلم شعبا عاش عليه أجداده أن يتلمسه مرة أخرى ليكتسب منه الحياة، ويكتسب صفة اللاجئ، ولكن بدرجة السفير.

وفي خضم هذا الموقف الذي بلغ من الحداثة على ذهني صورة لم تعلمني حياتي أن أدركها جيدا، تكلمت لويز:

المركب حتقوم بكرة الساعة كام؟

- في حدود الساعة ٦ الصبح.

- خلاص، بس أنا مش حعيش قد ما عشت، أنا المرة دي مش بس حشوفها من على ظهر مركب زي ما عملت وأنا صغيرة، لما كان أبويا وأمي خايفين عليا، أنا المرة دي حلمسها وأقف عليها، وارفع راسي لفوق، وبعدين أرمي الدهب اللى معايا عليها.

لم تجد لويز أي اعتراض أو حتى اقتراح بالتعديل، بل على العكس، وجدت تأييدًا ومشاركة، وكأنها صاحبة مشروع قومي..

انسحبت أنا بخفة وهدوء قبل أن يلاحظني أحد، وأثناء لحظات انصرافهم لم أفكر سوى في أن أستأجر قاربًا لأرى تلك اللحظات، وأجمع ما ألقوه على الصخر من ذهب، وأعود إلى الإسكندرية رجلا ذو ثروة، رجلا ذو ثروة لمجرد أنني كنت أتنصت على بعض كبار

السن، تلك الصفقات التي تسمى بالناجحة، فحتى أذني لم يرهقها العمل في التنصت، والمقابل أكثر من رائع.

هي نزهة بحرية سوف تكسبني الأموال، لا يعنيني حب هؤلاء لوطنهم، بل كم الأموال التي سوف يعبّروا بها عن هذا الحب، هم في نظري مجموعة من السفهاء يلقون بالذهب بحرًا، ولن أسأل نفسي ما إذا كان هذا اعتقادي حقا أم مجرد إقناع للذات لأبرر ما سوف آخذه مما تلقيه أيديهم..

لم أغادر مخْبئي الذي كنت أتنصت منه على الشرفة، إلا بعد أن انفض الاجتماع.

ضبطت الساعات والمنبهات على السادسة صباحا، و كنت سريعا جدا في تجهيز من يقلني وراءهم رغم أنني لا أعلم الوجهة تحديدًا، لم يرهقني الأمر شيئًا، بعض الاتصالات بأصدقاء الماضي، متخصصين في الرحلات البحرية أثناء فترة دراستي الجامعية وتنظيم رحلات للطلاب، قارب بمحرك يفي بالغرض، لن أنتظر تصاريح أو عبء بقانون، أو بالحصول حتى على جواز سفر، وحتى الدار الذي أعمل به لن أطلب من مالكيه أجازة، بضع ساعات في صباح الغد وسوف أعود لأشتري هذا الدار وأحوله إلى ملهى ليلي؛ لذلك كان المبلغ الذي سوف أستأجر به القارب و قائده استثمار مثمر جدا، فكنت أنا بمثابة الوظيفة الخالية، وما أكثر من سوف يتقدم، وما على سوى الاختيار.

استيقظنا في صباح اليوم التالي، أعطيت أوامري لمن هم أدني مني وظيفيًّا بأن ينهوا جميع إجراءات الخروج وتسليم الغرف بأقصى سرعة

ممكنة، تبعتهم للميناء حيث لهم ولي قوارب تنتظرنا، مع الفارق بأن سفينتهم أكبر وأضخم، وما يخصني قارب صغير، ربانه مغلوب على أمره، حتى في حديثه المقتضب معي بعد أن تحركنا وراءهم.

- باشا، لو اتمسكنا واحنا بنخرج من المياه الإقليمية أنا مليش دعوى !

- باشا، فيه حتت غميقة - عميقة - في البحر أنا مش حقدر ادخلها.

- باشا، الناس اللى احنا ماشيين وراهم دول إيه حكايتهم !

فأجبت أسئلته الثلاث بسؤال، هي الناس بقت بتتكلم كتير ليه وهي بتشتغل كده؟!

فكان هذا كفيل بإسكاته بعضا من الوقت

****

مرت قرابة الساعتين من الإبحار المتواصل ولست بخبير في سرعة الإبحار، ولكن شجاعتي أنا وربان القارب بدأت في التضاؤل شيئا فشيئا، فلم نعد نرى يابسة، ولا نشم رائحة البحر المالح الذي نعرفها، والضباب متوسط الكثافة، لكنه ينذر بالتيه إذا ما فقدنا الاتجاه، بينما نرى قاربهم يسبح في طريقه بلا تردد إلى اللامكان، وهو لا مكان بالنسبة لمن لم يره أو يعرف عنه، ولكنه المكان وكل المكان بالنسبة إليهم.

أتممنا ثلاث ساعات، بدأ مركبهم في التوقف بينما أراقبه بمنظاري الذي يثني على الضباب لأنه انقشع، أتأملهم بينما ينظر لي الربان المغلوب على أمره نظرة متقلقة تتمني فقط أن نعود من حيث أتينا سالمين، ثم بدأ مرة أخرى أنشودة الأسئلة ترافقها أغنية باشا التي لم تفارق شفتاه أبدًا منذ أن أعطاني تلك الرتبة الاجتماعية.

باشا، هي الناس دي متورطة فحاجة وحضرتك حكومة !

باشا، مهو أصل لازم تبقى حكومة عشان اليوم النهارده البحر فيه عامل زي السجادة الزرقا، هادي كدة ومفيش زعابيب، شغل ناس مذاكرة يعني.

باشا، لو كان معاك شنط بضاعة كنت قولت مخدرات، ولو معاك ناس كنت قولت هجرة مش شرعية، لكن أنت فرداني، طالع تبص على إيه !؟

نظرت إليه نظرة كانت كفيلة بإسكاته مدة أطول من الوقت..

إلى أن رأيت ثلاثة قوارب هوائية تترجل من السفينة بعض الأشخاص الذين أعرفهم وآخرين أكثر لا أعرفهم،

فأمرت الربان أن يلحق بهم،

باشا: معلش اعذرني، مليش أنا فيه، أنا حلف وارجع، ادي قارب هواء اهو اعمل بيه اللى تحبه، اعمل ما بدالك، والناس دي شكلها قرايبك لو روحتلهم حيركبوك معاهم ومش حيقولولك لأ

لم أكد أقفز إلى القارب الهوائي حتى وجدت هذا الربان وقد اختفى، مخزون الجبن الذي اختزنه في تلك الرحلة معي أعطى محرك قاربه

قوة مضاعفة للفرار من رحلته معي.

فكان وبحق هذا الأحمق - الحكيم في آن واحد، لا يستحق أن ينال لقب، ويفوز باللذات كل مغامر.

****

أخذت القارب الهوائي واستمريت في اتباعهم، يسلكون الطريق في المياه وكأنها منازلهم وهم الأسماك، حتى أن بعض الشوارع الأسفلتية لا يمكن السير فيها بهذه السلاسة خاصة في الإسكندرية، كان الخوف بداخلي من التيه يزداد، فجمعت قواي على ألا تغيب قواربهم عن نظري ولو للحظة واحدة، مما جعلني أقترب منهم أكثر مما كان ليجعل إحداهن تراني، ولكنها أدارت وجهها ولا أعتقد بأنها تملك قوة البصر كي تراني أتبعهم.

توقفت القوارب معا، بدأ الركاب النزول على يابسة صخرية خضراء اللون، وبداخل هذا اللون الأخضر لون أتذكره جيدا، لون برتقالي.. نزلوا على يابسة صخرية عجيبة الشكل والموقع، يقبلون الأرض، يتمسحون بها، وتقال كلمات ما لبثت أن ذكرتني بالتنوع اللغوي الذي يغمر تلك الجماعة من الناس..

حبيبتي، أموري، أخيرا

كأنما هناك علاقة عاطفية بين هؤلاء وتلك اليابسة، عدد القبلات التي تلقتها تلك الأرض الطيبة يفوق عدد ما تلقاه العشاق من بعضهم البعض من قديم الأزل، ونزلت السيدة الملقبة لويز تمشي عليها، تسير

بقدميها عاريتين، تصيح.

بلدي، بلدي دي بلدي، بينما يعيش الجميع حالة الفرح المؤدي إلى انتشاء، المؤدي إلى أشياء أخرى أغرب، ولويز تمسك بأيدي سيدتين أخرتين بينهما المصرية ساكنة الدار يسيرون على اليابسة بفرحة لم أر مثلها، وبلا سحر أو مجال لأدنى معجزة، اختفت التجاعيد عندهن وقد عدن صبايا قبل العشرين من العمر، ثم ما لبث أن اختفى التنوع اللغوي في غضون ثوان وأخذوا يرددون أناشيد لم أفقه كلمة واحدة منها، ثم ضحكت لويز بصوت مرتفع تسأل صديقتيها..

- مش كانوا بيقولوها كده؟ مش كانوا بيقولوها كده بالظبط !

يوافقها في الرأي السيدتين الأخرتين، ويكملون النشيد..

ثم نطقوا كلمتين هما الوحيدتين اللاتي تربطني بهم صلة تنصت.

أونج.. ليوندا، وكان هناك صوت بينهم لم أستطع تمييزه في لغتهم هذه، ولكنه لن يخرج عن كونه - و - أو مع، لتخليد ذكري أونج وليوندا، اللذان بدآ رحلة إعمار الجزيرة منذ آلاف الأعوام..

في الغالب، نظرًا لتلك المشاهد التي تعرض على عقلي الروتيني لأول مرة، فقد توقف الإحساس بالزمن عندي، ولم أدري كم مر من الوقت، فوجدتهم وقد بدءوا بإلقاء الذهب على أطلال جزيرتهم، لم تصدق عيني ما رأت، يرمون الذهب وكأنه رمال ويلقونه فيكسون به الصخر.

حتى صاحت لويز.

لو اطول اغطي كل حته فيكي بالدهب حعملها يا حبيبتي.

ثم أخذوا يجمعون حبات الحصى المتناثرة على اليابسة، وينحتون أساميهم على اليابسة، ويعبئون زجاجات مياه من الماء الذي يمسح تلك اليابسة، وبعد أن جمعت سيدة منهم عدد كبير من الحصى، صاحت:

انا حعمل عقد ليا وعقد لحفيدتي من أغلى أرض في الدنيا، مين كمان عاوزني اعمله.

لم يتسني لهم الرد لأن الحالة كانت متأخرة، فرح، بكاء، هيستريا جعلت أحدهم يغرز مخالبه في الأرض ويرفض أن يتركها، فيتجمعون حوله محاولين خلعه من الأرض..

وعندما تعالت الهتافات بضرورة التجمع في القوارب الهوائية بسرعة، تجمعوا فعلا ثم وصلوا للسفينة التي اتخذت سبيلها في البحر إلى حيث لا أعلم ولا يهمني أو يعنيني أن أعلم.

اللون الذهبي أمامي، سأعود إلى الإسكندرية لأشتري دار المسنين الذي أعمل به ثم أحوله إلى فندق أو ملهي ليلي، انتهي رائف الموظف واليوم ميلاد رائف المستثمر.

نزلت من قاربي على تلك الصخور التي تغمرني بعاطفة ما لا أعرفها، وأخذت أجمع في الذهب الذي ألقوه وألقي به في قاربي حتى امتلأ أكثر من نصفه ذهبا، تراودني أحلام وذكريات وكأنني أعيش الماضي والحاضر في ذات اللحظة، ولكنني على عهدي لا آبه بمثل تلك المشاعر، صوت الأمواج لا يبدو كأمواج الإسكندرية، بل يبدوا اقسي في نبرته، وبينما أحزم آخر متعلقاتي تمهيدا للعودة، بلغ الصوت من المدى بحيث إنني أقسمت لنفسي بأنني قد فقدت حاسة السمع !

ولكن بقيت حاسة الإبصار، بينما التفت لركوب القارب أرى جبلا ازرق اللون وأبيضه لم يكن موجودا عندما دخلت اليابسة لأول مرة، لم أدرك ما هي سرعة الضوء إلا عندما شرع عقلي الباطن في ربط الأحداث ببعضها البعض بسرعة فائقة وبصورة ميكانيكية وغير إرادية بالمرة، علمت أنه اجتياح المد البحر لليابسة مرة أخرى بعد مرات أخريات، هذا المد الكاسح الذي شرد شعبا في الماضي لن يقوى على رجل من هذا العصر، أو هكذا أظن، قفزت من أعلي صخرة داخل قاربي وما إن استقريت بداخله ثانيتين أو ثانية واحدة، حتى أجدني أطير بالقارب في الهواء دون أن أسبح به أو أتلمس به الماء، أطير وأحلق على ارتفاع جعلني أرى بقية اليابسة تتلاشي تحت الماء في عملية جزر ومد، ثم حساب لسرعة الرياح وحركتها لم أرى له مثيلًا من قبل، كنت على وشك أن أفقد الوعي وأدركت ذلك، دارت أسئلة كثيرة في ذهني حول مصيري ومصير الذهب الذي أحمله معي، كان لآخر ما حدثت به نفسي بينما أنا والقارب آخذين في الهبوط بعد أن قذفنا الموج على هذا الارتفاع.. ولدي تساؤل يعقبه نهر وجلدا للذات، أتفكر في الذهب وحياتك في آن واحد ! أحياتك والذهب يتساويان يا رخيص ! بينما آخرين في عمر أجدادك ألقوا الذهب بلا رجعة كهدية لوطن لم يلمسوه وأنت تلقي البثاق وقمامة في شارع حيث تسكن شخصيا.

فور ارتطام القارب بسطح البحر مرة أخري،كانت آخر تصرفاتي حقارة قبل أن أغيب عن الوعي.. رأيت من شدة ارتطام بطن القارب بسطح البحر وكرد فعل معاكس أنني أتطاير أنا والذهب الذي يملأ

أكثر من نصف القارب تقريبا، وبتلقائية وضيعة حاولت أن أجعل سقوط جسدي يحتضن قطع الذهب المتطايرة في الهواء ولم شملها محاولا جعل الشيء اليسير منها هو الذي يقع خارج القارب بينما احتفظت بواسطة جسدي بأغلب الذهب داخل القارب، وما لبثت أن شعرت بجسدي وقد تخدر بينما تتقاذفه الحركة بين زوايا القارب كدمية سخيفة، ولم يعطني مفتاح الحياة بالبقاء دون الغرق سوى بتمسكي بحبل كان يتدلى من القارب الهوائي، واحتضاني إياه حتى لا يتفلت من بين يدي.. الذهب في القارب وأنا مسحوب ومستمسك بحبل متدلي منه... هذا آخر ما رأيته قبل أن أفقد الوعي تمامًا، وبالطبع لا أعلم إلى أين المصير..

****

الفصل الثامن: اليقظة من الحلم والحقيقة معا

لم أسترد وعيي إلا وأنا في حجرة كئيبة في إحدى مستشفيات الإسكندرية، لا أعلم كيف جرفني التيار والإعصار و الطوفان وكل ما تجود به قوى الطبيعة إلى وطني مرة أخري،تسارعت وتيرة استردادي لوعيي بشكل مفاجئ لألتفت يمينا واحد ممرض يجلس بجواري، تبدو ملامح السخافة وقد نقشت على وجهه منذ أمد بعيد.

- أهلًا وسهلًا..

- أنت مين؟

- أخوك في الإنسانية عوض.

- وأنا إيه جابني هنا يا عوض؟!

- خفر السواحل لاقوك مرمي في المياه،

- مرمي إيه؟ أنا كنت في قارب مش في المياه، والقارب كان مليان.

- مليان إيه ! نهارك اسود أنت بتهرب بشر ولا إيه !

- بلاش كلام فارغ، مليان سمك.

- سمك ! لا مكنش فيه قارب، الظاهر سابك ومشي

- مين ده !

- السمك، ثم ضحك ضحكة سخيفة مرة أخرى، ربما ظن أن الأمر علاقة نسائية أخشى أن تنكشف.

- طب ممكن تشوفلي الحاجات إلى جيت بيها عشان اخرج !

ضحك عوض حتى رأيت الجزء الأبيض من أسنانه، بعد أن كان الجزء الأصفر هو الطاغي،

- تقوم فين؟ طب وضيوفك يا راجل، بوليس ونيابة والمستشفى تعمل محضر بالحالة، دي لسه حتحلوّ قوي.

- عوض، أنا محدش حيمسني بكلمة، أنا راجل ابن ناس بتفسح واصطاد بالقارب بتاعي، الموج خدني وغرقت، معلش لو كنت ضيعت عليك الفرحة يا عوض، بس صدقني أنا حروح وحبات في بيتنا النهاردة.

كانت كلماتي كفيلة بأن تجعل ضحكته تتلاشي ولله الحمد.

عوض: طب خلاص يا باشا حقك عليا، بس رسيني ع الحوار.

عندما فكرت مليا وجدت بأن في تلك اللحظات التي أحدثه بها هناك قارب هوائي يسبح في البحر وهو مليء بالذهب وما عليه سوى أن يختار الميناء أو الشاطئ الذي يرسو عليه فيتحول شخصا ما لا أعرفه إلى شخص شديد الثراء بالمصادفة، ربما غرابة الحدث ولدت لدي الرغبة لأن أروي لهذا الشخص الذي أمامي ما حدث كي يشاركني حمل وعبء لم أتخيل في حياتي تلك بأنني سوف أختبر شيئا مثله.

وبعد أن أنهيت ما قد رويته عليه، نظر لي عوض وربت على قدمي،

حصل خير.

وكأنما السخيف تحول فجأة إلى بارد، أو حكيم طغت حكمته

عليه فبات لا يتأثر، ولكنني على ثقة بأنه لم يظن بي العته أبدا،

تلك الفئة من المجتمع والتي ينتمي عوض أليها حباها الله قدرة فائقة على تخطي ما يفوق مداركها حتى وإن اطلعت عليه، تفاديًا لحدوث عطب شبيه بذلك الذي قد يحدث أذا ما طلب من الدمية على شكل العروس، يحركها مفتاح من الخلف ألا تعتقد بأن الآخرين من بني البشر لا يحركهم مفتاح مثلها - مثال مع الفارق -

****

بعد أن عدت لعملي مرة أخرى، وجدت سكرتارية إدارة الدار الذي أعمل به تبلغني بأن وفدا من النزلاء قد ترك لي رسالة، لعلها شكر على حسن الضيافة، رسالة قد أودعت للدار يوم بدأت التنصت ليلا، ليتم تسليمها لي في صبيحة اليوم التالي، ولأن من ترك لي الرسالة يعلم علم اليقين بأن موعد وصولها لن يكون في صبيحة اليوم التالي، ولأنه يعلم علم اليقين بأنني سوف أكون متغيبًا، فتركها لي وهو يعلم ميعاد وصولها الحقيقي، كانت رسالة قصيرة،

((أتحنا لك هدية أن تطلع وتعرف قصة شعبنا، ومثلك بمجرد أن يستمع سوف يجذبه بريق الذهب، مثلما يجذب ضوء النار الفراشات الصغيرة للتدفئة، ثم تقترب الفراشات أكثر فأكثر فتحرقها ذات النار التي دفأتها أول مرة، رشوتك ومقابلك كان ذهبا لن تطاله يداك، وإن طالته فلن تغادر به، وإن غادرت فلن تعود به. فقط كسبت شهادتك

على أسطورة شعبنا العظيم.

إن كنا نملك وطنا مثل وطنك لما كان مثلك قد وجد من الأساس، والآن وقد أهديناك ميلادًا جديدًا، رجل غير الذي كان يتعقبنا، تمتع بما قد رجعت به لوطنك، جسدك ولا شيء سوى جسدك، وقلب بات يعلم بان الساحل ليس سوى ستار، وأنت رأيت ما وراء الستار، حسابات المد والجزر وسرعة الرياح الخاصة بنا لا تخطئ أبدًا، مبارك عودتك سالمًا إلى حيث كنت، أخبر عنا وعن شعبنا كل من أحبت عيناه قلبه وأحب قلبه عيناه، ولكن بدون تفاصيل أو أسماء.. لأن بهذا الحب فقط. ترى الغارق الطافي.

بعد وطننا أصبح هناك شمال وهناك جنوب، أصبح لشرق وغرب اختلاف، كنا نحن البوتقة الجامعة، فالشمال والجنوب والشرق والغرب تجمعوا في لحظة ما في الماضي بمركز اتخذناه بلدا، وعندما رحل الوطن أصبحت الاتجاهات تتنافر، ونسيت أنها كانت تنبع من بوصلة واحدة، وكان وطننا نحن البوصلة والنجم الهادي.

ملاحظة: إن قدر لك أن ترى أحدا ممن قص أمامك قصتنا أو قابلته مصادفة في أي بقعة على وجه الأرض، فاعلم بأنك وطرحك وما سوف تقوله الرد عليه يكون بأنك مخرف لا أكثر، اتخذ بين البوح والكتمان وسطا كما نعيش نحن نتذكر جزيرتنا))

****

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول: شخصية هامشية وما عداها بطولية	٥
الفصل الثاني: أفكار عابرة.. مسيطرة	٢٥
الفصل الثالث.. أبدًا لم تنتهي المسألة	٥٩
الفصل الرابع: الضيف مضيفا.. والمضيف ضيفا	٦٥
الفصل الخامس: وحدة المصير	٧٥
الفصل السادس: حتى النباء اليقين.....	٨١
الفصل السابع: العودة إلى الوعي في شرفة دار المسنين.....	٨٩
الفصل الثامن: اليقظة من الحلم والحقيقة معا.....	٩٩